سلسلة لقاءات عبادة

الشكر

أ . أناهيـــــــــد السميري

ألقي في لقاءات الخميس
ربيع أول ١٤٣٢هـ

بسم الله الرّحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- ✓ هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- ✓ الكمال لله–عزَّ وجلَّ–، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمده سبحانه وهو يستحق الحمد ونشكره ونحن نرى آثار نِعَمِه تترا على الخلق، خصَّنا بالإيمان والتوحيد، وأنعم علينا بالعلم، ورزقنا الفهم عنه-سبحانه وتعالى-.

أخرجنا من الظلمات إلى النور، يسَّر لنا سبل العلم كلها، فنسأله-سبحانه وتعالى-أن يجعلنا من الشاكرين الذاكرين المثُنين عليه-سبحانه وتعالى-بما يستحقه، لا نحصي ثناءً عليه-سبحانه وتعالى-هو كما أثنى على نفسه.

وبما أنَّ النعم تترا والعبادة الحق منطوية على شكره-سبحانه وتعالى-فكل عابد على الحقيقة إنَّما هو شاكر لربِّه على ما أنعم عليه مِن نعم، فستكون لقاءاتنا-إن شاء الله-سلسلة حول عبادة (الشكر) من أجل أن نفكِّك الموضوع الذي يكاد يكون هو صلب الدين من جهة، وحَلٌّ لكثير من المشكلات التي نعيشها على المستوى الفردي في نفوسنا وأبنائنا وعلى مستوى الدول.

هذا الموضوع الذي يكاد يكون صلب الدين وهو الحقيقة؛ لأن الناس كما وصف-سبحانه وتعالى-: {إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[1] فانقسامهم على هذا دلَّ على أنها قسمة ثنائية، بمعنى أن الناس لا يخرجون عن هذان الوصفان، إمَّا يكون الشخص كافر وإمَّا شكورٌ لربِّه، وعلى هذا الناس في هذا الأمر درجات، في كفرهم درجات وفي شكرهم درجات.

فنسأله أن يجعلنا من الشاكرين الذاكرين، وأن نكون ممن شكر عن علم وعن صدق، فكم من شاكر كاذب وكم من شاكر جاهل ما تغلغل إلى أعماق قلبه علمه بما يستحق-سبحانه وتعالى-من الثناء، فلذلك كان شكره باردًا وانفعاله ليس في مكانه.

سنطرح هذا الموضوع من ثلاث جهات:-

1. حقيقة الشكر والبواعث عليه، هذا سيكون في لقائنا اليوم.
2. ثم ننتقل لصورة من صور الشاكرين ذكرها الله في كتابه، هذا سيكون إن شاء الله في اللقاء القادم.
3. إشارة إلى ضد الشكر وما ضرب الله-عزَّ وجلَّ-له أمثلة في كتابه.

نبدأ الآن في الكلام حول: **(حقيقة الشـــكر)**:

هذه الكلمة وهي كلمة (الشكر) من الكلمات المكرَّرة التي يستعملها الناس في حق الله-عزَّ وجلَّ-، ويستعملها أيضًا الناس في حق الناس، فنحن نقول: (نشكر الله) ونقول: (نشكر الناس)، وفي الحديث كما هو معروف ((مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ، لاَ يَشْكُرُ اللَّهَ، وَمَنْ لاَ يَشْكُرُ الْقَلِيلَ، لاَ يَشْكُرُ الْكَثِيرَ))[1].

(1) [سورة الإنسان: 3]

- ✓ فما المقصود بالشكر من جهة عمل القلب؟
- ✓ وما المقصود بالشكر من جهة عمل اللسان؟

وهذا تقرير أن الشكر سيكون: عمل للقلب، وعمل للِّسان.

أمَّا من جهة عمل القلب هو الذي سيكون التفصيل فيه، ثم سينتج عن ذلك عمل اللسان.

الشاكر: شخص شعر بالنعمة، ونسبها إلى المُنعِم، وشعر بفضله عليه، فانفعل بقلبه، ثم انفعل بلسانه.

وسيأتينا بعد ذلك الانفعال بالجوارح، لكن أولًا الشكر عمل يحصل في القلب، يعبِّر عنه اللسان، وفي أول فرصة تعبر الجوارح؛ فأصل الشكر الشعور بالنعمة، ثم إذا شعر وانفعل أتى بعدها انفعال اللسان؛ ولهذا نلاحظ اقتران الشُكر بالذكر.

لماذا يقترن الشكر بالذِّكر؟

كما اتَّفقنا أن الشاكر منفعل بقلبه على الحقيقة، ثم هذا الانفعال أول مخرج له اللسان، وبعد ذلك كل فرصة تأتيه من أجل أن يعبِّر بالجوارح يفعل، فاقترن لذلك الشكر مع الذكر.

إذًا ما هو الشكر؟ الشكر عمل قلبيّ.

- نتيجة ماذا؟ نتيجة الشعور بالنعمة.

فإذا شعر بالنعمة أظهرها، نسبها إلى الله وأثنى على النعمة وعلى المُنعِم.

وهل شرط أن الناس ينسبون النِّعم إلى الله حين يشعرون بها؟

نرى أقسام الناس في هذه النقطة:

1. مِن الناس مَن هو جحود بحيث أنه لا يعترف بالنعمة سواء نسبها إلى الله أو إلى الخلق.

لا نتكلَّم عن جاحد لنعمة الله إنَّما عن شخص لا يشعر بالنعم، ويهرب قلبه دائمًا من مشاعر أن لأحد فضل عليه، وهذا كِبْر دفين في النفس، دائمًا يهرب من أن يكون لأحد فضل عليه، ومن الطبيعي أن يكون لوالديه فضل عليه، لإخوانه فضل عليه، وهناك فرق بين أن تعترف بأن لأحد فضل عليك وأن تكون ذليلًا لأحد.

المقصد أن الشاكر يضادُّه مباشرة الجاحد، **ما هذا الجاحد؟**

(1) رواه البزار في مسنده، قال الألباني: حسن.

ليس في قلبه قَبول أن لأحد فضل عليه؛ وهذا تفسير حديث النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((مَنْ لاَ يَشْكُرِ النَّاسَ لاَ يَشْكُرِ اللَّهَ))[1] أي: من لا يستطيع أن يعترف بالنعم صغيرها وكبيرها فمن المؤكَّد أنه لن يعترف بنعمة الله-عزَّ وجلَّ-عليه، فالشكر فضيلة توجب كمال إنسانية الإنسان، وهو اعتراف بالنعمة، اعتراف بأنِّي في نعمة.

فالنقطة الأولى التي يفترقون فيها هي الاعتراف بالنعمة، فهناك أشخاص فيهم نكران وجحود لا يعترفون أن نعمة عليهم، كلَّما نظروا إلى ما يتمتعون به أخرجوا لك ما ينغِّص فيه. فالمقصود أن النوع الأول من الناس الذي يقابل الشكر: الجحود-شخص جاحد-فهو غير معترف في الأصل بأن نعمة واقعة عليه.

2. النقطة الثانية التي تضاف في معنى الشكر، **الشكر هو: الاعتراف بالنعمة ونسبتها إلى المُنعم.**

نأتي الآن في أصناف الناس في نسبة النعمة للمُنعم، وهذا مكان افتراق عظيم بين الناس، فأولًا نأتي إلى التقسيم الثنائي الذي يقسم الناس قسمين:

أصناف الناس في نسبة النعمة للمُنعم:

1. مَن ينسب النعمة لله.
2. مَن ينسبها لغير الله.

أمَّا غير الله فيتفرَّع، يعني: مَن غير الله الذي يمكن أن يُشكر؟ كثير، ممكن أن يشكر الإنسان نفسه، ممكن أن يشكر الخلق، ممكن أن يشكر معبودات غير الله؛ ولهذا لو أتيت في هذه القسمة الثنائية وترى أيهم أكثر أن يشكر الله أم من يشكر غير الله؟

تجد في كتاب الله-عزَّ وجلَّ-: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ}[2] {قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ}[3].

(قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ) فيها فرق عن (أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ) بمعنى أن كثيرًا من الناس في أصلهم لا يشكرون، لا يوجد في قلوبهم شعور بالمنَّة، أو لا ينسبون النعمة إلى الله.

ثم نأتي للصنف الثاني الذين ينسبون النعمة إلى الله ويشكرونه، هؤلاء الناسبين النعمة، الشاكرين هم في شكرهم قليل، مع نسبتهم النعمة لله-عزَّ وجلَّ-ومع ذلك هم قليل في شكرهم (قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ) إذًا ماذا تفعلون إذا بلغتكم النعمة؟ هل تُلهيكم النعمة فتستمعون ومن ثَمّ تغفلون عن شكره؟ وهذا النقاش كله حول من هو في أصله شاكر.

اتَّفقنا أن الناس انقسموا قسمين:

- ناس يشعرون بالنعم.
- ناس يجحدون النعم، لا يوجد في قلوبهم شعور أن هناك نعمة، ودائمًا يكلمونك عن أن هناك نقص.

ثم من يشعرون أن هناك نعمة، ينقسمون إلى قسمين:

---

(1) رواه الترمذي (كتاب البر والصلة، باب مَا جَاءَ فِي الشُّكْرِ لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ، 2081) وقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وقال الألباني: صحيح.

(2) [سورة البقرة: 243]

(3) [سورة الأعراف: 10]

- قسم ينسب النعمة لغير الله ومن ثم يشكر غير الله.
- وقسم ينسب النعمة لله ثم يشكر الله.

من ينسب النعمة لله أيضًا ينقسم إلى قسمين في شكره:

- قسم قليل ما يشكر.
- قسم منَّ الله–عزَّ وجلَّ–عليه فكان من الشاكرين.

ما هو العلم الذي إذا دخل إلى القلب يكون سببًا لأكون من الشاكرين لله شكرًا كثيرًا؟

بمعنى: ما هو العلم الذي إذا دخل إلى القلب شعرت فيه بالنعمة دائمًا ونسبتها إلى الله ثم وقع في قلبي العرفان، بل العجز عن الثناء عليه–سبحانه وتعالى–، فأكثر اللسان من الثناء وعجز القلب عن ذلك؟

- نحتاج أن نجمع بين ثلاثة أنواع من العلم:

العلم الأول: العلم بحقيقة النفس، وحقيقة فقرها، وحقيقة عجزها ونقصها، إلى آخر مالها من صفات.

وهذا علم يجب ألَّا ينفك، لابد أن نبقى نذكِّر أنفسنا دائمًا بفقرنا، ولا ينفع في هذا الباب مجرَّد الكلام العام بل لابد من الأدلَّة والنصوص ولابد من الانتفاع بلحظات الفقر والعجز، ولابد من تذكير النفس بها.

وهذا العلم له عدة موارد:

- مورد النصوص الشرعية.
- مورد الحياة اليومية التي أعيشها.
- مورد العبرة بما مضى من حياة الخلق.

العلم الثاني: هو العلم به–سبحانه وتعالى–وبكمال صفاته.

فإن الجاهل من المؤكَّد أنه لن يكون شاكرًا، فلا تتصوَّر شخص جاهل بالله يمكن أن يكون حقيقةً شاكر لله، ربَّما وقع منه الشكر لكن ليس كما ينبغي، وإن كنَّا جميعًا نشترك أننا لا نحصي ثناء عليه، لكن الجاهل تراه يناقض شكره في لحظتها، في لحظتها يكون شخصا آخرًا، يشكر بلسانه ثم تراه ينقض شكره على الفور.

العلم الثالث: ملاحظة تدبير الله وتغيُّر الأحوال، التي نسمِّيها (الاعتبار).

والاعتبار في الغالب يكون بما قصَّه الله–عزَّ وجلَّ–علينا من أحوال الأمم (الشاكرين، الكافرين)، وبما مرَّ علينا من أحوال الناس، فأنت ترى شاكرًا زيد له بسبب شكره، وترى بطرانًا أكثر من التعييب في نعمة الله–عزَّ وجلَّ–وترى كيف أُخذت النعمة منه، فلابد من الاعتبار من أجل أن تسلك مسلك الشاكرين.

كم عشنا مواقف مع أنفسنا ومع الناس؛ ذُكرت لهم نعمة فأظهروا الاستغناء عنها أو أظهروا بغضها فرأيناهم بعد سنين يبكون على ما جنوا بألسنتهم، وبما قام في قلوبهم! ومع هذا كله الذي تراه مكرَّرا، أيضًا ترى آثار رحمة ربك، وترى آثار حلمه–سبحانه وتعالى–ولطفه بخلقه.

إذًا اتَّفقنا على تفريعات أوصلتنا لهذه النقطة:

الشكر في الأصل عمل قلبيّ، يضعف يكون قليلًا أو يقوى فيصبح كثيرًا، أو لا يكون موجودًا فيصبح صاحبه جاحدًا.

الشكر لابد أن يتبعه مشكور، فقلوب تشكر الله–عزَّ وجلَّ–، وقلوب تشكر غيره، هذه أيضًا نقطة فيها إشكال يعيشها ناس كثيرين!

نريد قلبًا شديد الحساسية للنعم، فإذا اشتدت حساسيته انتقل من الإحساس بالنعمة إلى سرعة نسبتها إلى الله، فإذا وجد عنده السرعة في نسبة النعمة إلى الله لابد أن يلهج قلبه ولسانه وجوارحه بشكر الله، وعلى هذا لو نظرت مرَّة أخرى، ستجد هناك مشاعر شكر عند الخلق لكن لا يوجد شدَّة حساسية للنعم، فهناك موت للإحساس، في أحيان كثيرة أنت تحتاج أن تقوم بعملية إنعاش للقلب من أجل أن يشعر بالنعمة! فالقلوب مَوات في الشعور بالنعم.

ولذلك تسمع ألسنة في غاية القبح في ذكر النعمة على أنها نقمة، وهذا أكثر شيء يحتاج منَّا إلى تنشيط، وهذا عمل يخص كل شخص فينا، أن ينهض إلى قلبه فينشط فيه فيذوِّب فيه الجمود والجليد، البرود الحاصل تجاه نعم الله–عزَّ وجلَّ–، ثم إذا شعر بالنعمة تأتيني مشكلة أخرى مشكلة النسبة.

- **معالجة مشكلة النسبة ومن أجل ألَّا ينسبها إلَّا لله–عزَّ وجلَّ–فعلينا بما ذكرنا من حلول:**

1. نعرف أنفسنا من أجل ألَّا يخطر ببالنا حينما نشعر بنعمة أن ننسبها لأنفسنا أو نستغني في مشاعرنا عن الله.
2. نعرف الله لنتصوَّر مقدار فقرنا إليه.
3. نعتبر بأحوال القوم الذين تركوا الشكر، وهذه الصور التي اتَّخذتها عبرة لك لا تغيب عن بالك وفي نفس الوقت تعلم أن غيرها كثير موجود لكن الله–عزَّ وجلَّ–يعامل الخلق بحلمه–سبحانه وتعالى–.

بعد هذا الكلام نقول: كم مشكلة عندنا؟ في الأصل عندي مشكلتين في الشكر:

1/ مشكلة الشعور بالنعمة.

2/ مشكلة النسبة.

النفوس الآن كثير منها يشترك فيها أنها لا تشعر أصلًا بالنعمة ويدخل إليها البطر! ولهذا ترى أن هؤلاء الجاحدين لهم نفسية معيَّنة تستطيع أن تميزها دائمًا؛ أنَّهم ليسوا براضين، دائمًا ينسوا ما عندهم ويفكِّروا فيما عند غيرهم، بمعنى أن ينسوا الموجود ويفكروا بالمفقود، ولهم صفات كثيرة.

↵ نبدأ الآن بالكلام حول النقطة الأولى وهي: **كيف نعرف الله لتصحّ منا نسبة النعمة إليه؟**

مثلاً: هذا الشخص يشعر بالنعمة، نجح، سكن في بيت جديد، شفي، رُزق بمولود (جميل)، لكن في هذا كله إن تكلَّم عن الله تكلَّم في ثانية، وتراه يتكلَّم عن الأشخاص أو عن ماله أو عن البنك الذي سلَّفه أو عن صاحب العقار ساعات! هذا عنده مشكلة في نسبة النعمة.

فهذه أصل المشكلتين التي نعيشهم: إمَّا عدم شعور بالنعمة وإمَّا في عدم نسبتها لله، وممن ننسب إليه النعمة نفوسنا، فنفوسنا من المواطن العظام التي نرى نفسنا فيها.

- **مشكلة الشعور بالنعم.**

ما سبب مرض عدم الشعور بالنعمة؟ ما صفات صاحبه؟

أولًا عدم الشعور بالنعمة عند كثير من الخلق مرض غير مُدرَك، يعني يكون الإنسان مصاب بعدم الشعور بالنعمة وهو لا يشعر؛ يأتي كثير من الخلق إلى أرزاق الله وعطاياه فيكون لهم أحد مواقف ثلاثة وهي (أسباب نسيان النعم):

⟸ **الموقف الأول:** ينظرون إلى النعمة على أنها نقمة.

وهذا ربَّما لا يُستثنى فيه أحد في عصرنا، فيما نحن فيه الآن ترى كثير ممن

أنعم الله–عزَّ وجلَّ–عليهم بعظيم النعم ينظرون إلى كثير من نعم الله على أنها نقمة!

فهذه تحت رجل مثلًا زوج أو أب شديد صعب المراس، يمنعها من الاختلاط والخروج لزميلاتها، هي تحزن على نفسها والناس يحزنون عليها، وما يعلمون أن ربًّا عليمًا حكيمًا جعل طبيعة ولي أمرها بهذه الصورة حفظًا لها ومنعًا لها من بلاءات عظيمة، وهي لا تدرك طبيعة نفسها ولا تدرك أنها لو تُركت ستنفلت! هي تقول لك: فلانة تخرج ومحفوظة وما حصل لها شيء، نقول: الذي سلَّط عليكِ مثل هذا عليم بحالك، وجُر هذه النقطة على غالب الحياة.

تجد كثير من الخلق ابتلوا بما هو غير مناسب لهم، ولا يأتي على هواهم، وكان نعمة لكنهم ما أدركوا ذلك! وعلى هذا ستكون مشاعري تجاه الأقدار التي تجري عليَّ هي مشاعر شخص يعرف مجريها، ويعرف أن من أسماء مجريها (الطيِّب) فإذا كان–سبحانه وتعالى–طيِّبًا مقدَّسًا منزَّهًا عن النقائص والعيوب كلها؛ فمن المؤكَد أنه لا يأتي من الطيِّب الذي اكتمل طيبه إلَّا الطيِّب.

وانظر إلى كثير ممن نضجوا وعبروا سن المراهقة أو أوائل الشباب ورأوا حكمة الله في أن يكون لهم مثلًا ولي أمر بهذه الصورة، في أن تكون لهم أُمّ بهذه الصورة أو أوضاعهم الاجتماعية بهذه الصورة، يروا آثار لطفه وطيبه–سبحانه وتعالى–.

فالمقصود أننا أولًا لابد أن نحرِّر أنفسنا من النظرة السلبية تجاه ما قدَّر علينا من أمور تأتي على خلاف هوانا، ولقد كان المصطفى–صلى الله عليه وسلم–فقيرًا يرعى الغنم، فكان فقره ورعايته للغنم سبب لمجده وسبب لقدرته على تسييس الخلق لمَّا كلِّف بالرسالة، وكان هروب موسى–عليه السلام–إلى مدين وبقائه تلك السنين يتحمَّل ويتحمَّل ثم عودته في ذاك الوقت سبب لأن يكون كليم الرحمن.

فإنّ في طيّات ما لا تهوى كثيرًا مما تهوى، لكن لن تراه إلَّا حين تكون من الشاكرين.

إذًا هذه المسألة الأولى في هذا المقصود، يعني: عدم شعورنا بالنعمة أحد أهم مواقفه أن النعمة تنقلب عندي إلى نقمة لأنها لا توافق هواي، فأصبح مصدر رضاي هو هوايّ، وحسابي لهذه الأمور التي تدور حولي أنها نعمة على حسب موافقتها لهواي.

الموقف الثاني الذي نرى فيه أثر هذا المرض-عدم الشعور بالنعمة-:

⟸ **الموقف الثاني:** الاعتياد على النعمة.

كثير من الناس لا يشعرون بالنعم لأنهم اعتادوها، وهذا يطول النقاش فيه وتكثر الأمثلة عليه ويتباين الناس فيه، فأنت الآن تملك من أمرك أن تتحرَّك وقتما أردت لأن الله-عزَّ وجلَّ-سلَّم أعضاءك، وتملك من أمرك أن تقلب صفحات كتابك أو تكتب بقلمك مثلًا لأن الله-عزَّ وجلَّ-مكَّنك من هذه النعمة، فإذا نظرت لمن فقد شيء من أطرافه (أصبعه، إبهامه) فقط، ستعرف في أي نعمة أنت؟ وبماذا تتميز؟ وكيف أنك تتقلَّب بالنعم!

فالاعتياد قتَل الشعور بالنعم، وأضعف عند كثير منَّا الشكر، مشاعر أن النعمة مستقرَّة أذهبت من قلوبنا الخوف من فقدانها، فالآن الله عاملك هذه المعاملة وأقرَّ عليك النعمة ولم يذهبها منك، فهل كان ردُّك نسيان النعمة؟!

وعلى هذا ستقول: أنا سأعجز عن الشكر! لماذا؟

لأني لو أردت أن أفكِّر فيما عندي من هذا النوع من النعم المنسية المعتاد عليها، سأجد نفسي عاجزًا عن العَدِّ أصلًا، ومن ثمَّ عاجزًا عن الشكر، وهنا نقول: قد أتيت بقلب الشكر لو عجزت عن شكرها.

فالمعنى أن هذا الباب أخذ ناس كثيرين، اعتادوا على صحة في أبدانهم وعلى طعام في بيوتهم، وعلى نوم هادئ في ليلهم، وعلى ذريَّة يسيرة ينجبونها، فأخذ الأمر في قلوبهم حد العادة، فماذا فعل بهم؟ لمَّا اعتادوه مات الشكر في قلوبهم، وحين تقول لهم: احمدوا الله! وهؤلاء غالبهم سفهاء، يموت شعورهم بالنعم ويقعوا أيضًا في البطر، تقول لهم: اشكروا الله، يجيبون عليك: على ماذا نشكر؟! يتصوَّرون أن الشكر لا يكون إلَّا على نعمة جديدة أمَّا المستقر عندهم فلا يشكرون.

فكان هذا السبب الثاني، وهذا لا يُتَّهم به أحد، هذا أمر كلنا مشتركين فيه، في الموقفين، مشتركين في النظر إلى كثير من النعم على أنها نقم، ومشتركين في الاعتياد على النعمة، وسنذكر أسبابًا للوقوع في هذه الأمور.

⟸ **الموقف الثالث:** الانشغال بالدنيا جعلهم ينسون حقيقة النعم.

نرى كثير من أحوال الخلق الذين يشتغلون بالدنيا، يُفتح لهم من لطف الله-عزَّ وجلَّ-ورحمته أبواب للآخرة تحيط بهم، لو ما كانت مفتوحة وقريبة لم يعتنوا بها.

مثلًا: شباب ورزقهم الله أن يسكنوا قريبًا من المسجد، فأصبح المسجد نقطة تجمعهم حول المسجد أو قريب من المسجد، يدخلون المسجد بعد الركعة الأولى أو الثانية ويصلُّون مع الجماعة-أسأل الله أن يشرح صدور شبابنا أجمعين-، فقربهم من المسجد

نعمة، ووجود صاحب أو اثنان لقاءهم في المسجد نعمة، لكنهم لا يشعرون بهذه النعم، لا يشعرون أن جارًا صالحًا أو مسجدًا قريبًا أو حلقة أو مدرسة تحفيظ مفتوحة من النعم، لماذا هذا النسيان؟

بسبب الانشغال بالدنيا {فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ}[1] وأنساهم أن سهولة إقامة الدين نعمة من الله.

مثالًا آخر من أجل أن تتصوَّروا خطورة هذه الحال:

إقامة التوحيد ومنع مظاهر الشرك من عند منع التبرُّك بالأشجار والأحجار إلى منع جعل القبور مزارات، هذه تعتبر نعمة عظيمة، لا يدركها إلَّا من اعتنى بدينه، لكن كلِّم أهل الدنيا عن هذه النعمة، كلِّم المشتغلين بالمأكول عن هذه النعمة، تجدهم لا يحرِّكون ساكنًا، لا يشعرون، موتى!

وهذا النوع من النعم المنسية حدِّث به ولا حرج، حدِّث من كثرته، وكثرة الواقعين فيه، وكلهم يشتركون في أمر خفي وهو أن دنياهم أهم من أخراهم، فهؤلاء عدم شعورهم بالنعمة سببه الانشغال بالدنيا، سببه أن دنياهم أهم من أخراهم، سببه الطمع، فالطمع يُورِث الإنسان موت في الشعور بالنعمة!

فالانشغال بالدنيا أنساهم أن نعمًا كثيرة في دينهم تحيط بهم لكن هم ليسوا لها بشاكرين، وربَّما يكون هناك أسبابًا أخرى لنسيان النعم والشعور بها لكن ما يظهر لي أن هذه الثلاث هي الأصل وقد تقرؤون في ذلك تقارير-أسأل الله يفتح على الجميع-

❖ هذه الثلاث ما الذي يغذِّيها ويزيدها، وما الذي يكشفها عنَّا؟

سنحدِّد عوامل هي السبب إمَّا في وجودها وإمَّا في إزالتها:-

لـ أولًا: طبيعة نفوسنا.

الناس طبائع، فهناك طبائع من الخلق طبائع مُنكِرة، تَكْفُرك دائمًا بالنعم، يعني بعض الخلق ابتلوا في طبائعهم أن فيهم كفران للنعمة، كفران النعم هذا طبع مشترك بين الخلق لكن يزيد عند أشخاص وينقص عند أشخاص، لمَّا تعرف هذا الأمر سيكون الحل أن تعالج كفران النعمة، تردُّ نفسك، ما تخرج نفسك على هواها، والمشكلة أن النساء أكثر كفرانا لمن يعاشرهنَّ، فالعشرة بمعنى الملازمة، والنساء من طبعهم يكفرن العشير زوجًا كان أو غيره، شخصًا كان أو نعمة؛ فإذا فهمنا هذا عن أنفسنا بدأنا نتلمَّس جروحنا.

فلابد من مراجعة النفس من أجل ألَّا أكون ذاك الكفور الذي يكفر نعمة الله وينكرها ويجحدها، وبعدما وصلت لي أقول: أنا في غنى عنها! أو ستصل ستصل! أو أقول إذا ما جاء بهذا الطريق يأتي بطريق غيره؛ فيبتلى الإنسان بتعبيرات عن كفر النعمة.

فطبائعنا مستعدَّة للكُفران؛ ولهذا وصف الله-عزَّ وجلَّ-جنس الإنسان بأنه هلوع، منوع، جزوع، ثم استثنى منه المصلين، يعني هناك طريق لتهذيب نفسك، لكن أنت في الأصل ليس هذا حالك.

(1) [سورة المجادلة: 19]

ـــ ثانيًا: المجتمع.

الناس المحيطون بنا، تراهم يشعرونك بنقص وأنت في حال كمال، يقنِّطونك وأنت قريب من الفرج، يزهِّدونك في أمر يجب عليك الطمع فيهم، يطمِّعونك في زائل، يزيِّنون لك باطلًا، ويقبحون لك حقا، فالمجتمع له أثر كبير في عدم الشعور بالنعمة، تقبيحها، تقليل قيمتها، في الغفلة عنها، في قلبها نقمة، ومن المؤكد أن في ذاكرة الناضجين كثير من هذه المواقف، فوجب التحرر من مقاييس المجتمع على النعمة.

المعنى: أن كثيرًا من مفاهيم المجتمع حوَّلت النعم إلى نقم، وانظر إلى نعمة مثل نعمة الإنجاب، وكيف جعلها المجتمع نقمة! وانظر إلى نعمة مثل نعمة ولي الأمر كيف حوَّلها المجتمع إلى نقمة! وعُدّ ما أردت من مقاييس باطلة ليست شرعية ورَّثها المجتمع لأهله وأصبحوا بذلك يحكمون على النعم، فلم يرضوا عمَّا أنعم الله به عليهم وكانوا سببًا في عدم رضا الناس عمَّا هم فيه.

ولهذا لمَّا تنظر إلى كثير من الثورات على الحق، كالثورة على الحجاب، وكالثورة على التحاكم بما أنزل الله، ترى كيف أن المجتمع أو مقاييسه تسبِّب تحويل النعمة إلى نقمة.

- كيف تحوَّلت هذه النعم إلى نقم؟ من تلاعب بعقلهم؟ من أورثهم هذا الأمر؟

هذا كله له خلفياته وأسبابه وسياسته وتفكيره وتسريبه، لكن في النهاية أنا أمام مجتمع، أنت أُنعم عليك بنعمة مثل الحجاب، وتجد أن هناك من يراك قد ابتليت بمصيبة ويبذل جهوده أن يحرِّرك منها! ويأتون لك من زاوية فيها شيء من الحقيقة، من زاوية مثلًا أنك ستفقدين كثيرًا من المُتع نتيجة أنك بهذه الصورة! فهم لا يستطيعون أن يضغطوا إلَّا على مَن عظمت الدنيا في نفسه.

- **فكيف يستطيع المجتمع أن يحوِّل النعمة إلى نقمة في وجهة نظرنا؟**

له طرق كثيرة، من بينها طريقة تصلح لمن طمع في الدنيا، لمن لم يعرف ربه، لمن لم يحسن في التعامل مع أوامر الله–عزَّ وجلَّ–، فيأتيك أحد يُشعرك أنك لو صبرت فأنت ضعيف، ولو امتثلت للأمر فليس لك شخصية، ولو دفعت بالتي هي أحسن سيستضعفك الخلق، ولو رأيت أن انتظار الفرج من الله–عزَّ وجلَّ–عبادة وقربة فهذا معناه أنك سلبي!

ولطالما عظَّموا الأسباب في قلوبنا وبذلوا جهودهم في جعلها قائدًا ورائدًا، وأنسونا وتناسوا أن الأسباب بيد الله، فالأسباب بيد المسبِّب–سبحانه وتعالى–هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء {أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}[1] **فما قام في قلب العبد من الحق يلحقه الضَعف لو استسلم للمجتمع!** كل هذه عوامل تزيد نسيان النعمة.

ـــ العامل الثالث: الابتلاءات.

(1) [سورة الواقعة: 63-64]

فقد يبتلى الإنسان في حياته وفي طريقه إلى ربه–ولا بد أن يُبتلى–بما ينغِّص عليه الحياة، فحين يُبتلى بما ينغِّص عليه الحياة ينسى في طيَّات ذلك ما أعطاه الله من نعم، فتتكدَّر بنقص نعمة فتنسى النعم، وهذا للأسف كثير، كثير! وهو ما وصف–سبحانه وتعالى–في كتابه من حال العبد اليؤوس القنوط من رحمة ربه، ما سبب يأسه وقنوطه؟

بسبب أن نقصًا حصل فيما أعطاه ربه، وهو الذي أعطاه، وهو الذي منعه اختبارًا {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[1] هذا حاله بعدما أنعم الله–عزَّ وجلَّ–عليه بالنعم، أي حاله بعدما بدلّ الله–عزَّ وجلَّ–عليه النقمة وجعلها نعمة، لكن وقتما ابتلي بهذا، وقتما نقص عليه هذا الأمر كيف كان حاله؟ كان حاله يؤوسًا كفورًا بنعمة الله–عزَّ وجلَّ–، ينسى ما أنعم الله–عزَّ وجلَّ–به عليه لأن نقصا أصابه!

من أكثر ما نخشى على أنفسنا أننا حين نفقد نعمة من النعم، رزقنا الله إيَّاها ثم ابتلانا بفقدها، فيكون ردُّنا على الله أن ننسى باقي نعمه، وأن نكون ممن كفر النعمة وما ذَكَرَها؛ ولهذا يقول سبحانه وتعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ}[2] المعنى: أنه ييأس من رَوح الله أن يبدِّله، ويستسلم لليأس، وينقاد للقنوط، فلا يرجو رحمة الله، وفي نفس الوقت هذا الحال يكون الإنسان فيها كفورًا، أي أنه يكفر بنعم الله–عزَّ وجلَّ–، وينسى المُنعِم–سبحانه وتعالى–، فأنت تجد أن كثيرًا من البلاءات التي يعيشها الإنسان سبب لنسيان النعمة، وهذا كما مرَّ معنا من أكثر ما نخشاه، أن يكون الإنسان مستقيمًا في حياته، صاحب دين، ثم بسبب نعمة نقصت عليه يُصاب باليأس من رَوح الله–عزَّ وجلَّ–، فيتحوَّل إلى يائس من رحمته، كفور به–سبحانه وتعالى–!

اتَّفقنا في هذا اللقاء على أننا سنناقش حالنا مع الشكر، وكيف أن هذه العبادة العظيمة مبدؤها **(القلب أولًا)**، بالاعتراف بالنعمة، ثم نسبتها إلى المُنعِم، فإذا اعترفنا بالنعمة كان هذا مبدأ المسألة، لكن كم معترف بالنعمة أخطأ في نسبتها، فلم يكن شاكرًا على الحقيقة.

فكان اللقاء لمناقشة هذين الأمرين:

⟸ الأمر الأول: ما الذي يمنعنا من الإحساس بالنعمة؟

اتَّفقنا على ثلاثة أمور:

1) إمَّا أن تكون نِعمًا اعتدنا عليها.

2) نِعمًا انقلبت في نفوسنا فأصبحنا نراها نقمة.

(1) [سورة يونس: 12]

(2) [سورة هود: 9]

3) نعِمًا بسبب اشتغالنا بالدنيا لا نشعر بها، من نعم الدين والتوفيق إلى الأعمال الصالحة وتهيئة البيئات المناسبة، كل هذه نعم الناس ينسونها.

⟸ الأمر الثاني: ما الذي يغذِّي هذه الأمور الثلاث؟

ماذا يغذي عند الناس الشعور بأن نعمة نقمة؟ وعدم المبالاة بنعم الدين؟ ونسيان النعمة الموجودة والتعلُّق بالنعم المفقودة؟ ماذا يسبِّب هذا؟ وما الذي يغذِّيه؟

أيضًا اتَّفقنا على ثلاثي يغذِّيه:

1) الطبائع النفسية سبب لنسيان النعم ولعدم الشعور بها، هناك في النفوس طبيعة الكفران، فأنت محتاج إلى المجاهدة من أجل أن تخرج من طبيعة الكفران.
2) المجتمع من أقوى المسبِّبات لنسيان النعمة والذي يقلب الحقائق، ويجعل كثيرًا من النعم نقمًا، وكثيرًا من الأخلاق الممدوحة مثل الصبر، ومثل الرضا، ومثل التعلُّق بالله وانتظار الفرج منه، يحسبها في قاموسه بالسلبية، وبالإتكاليّة، وبعدم الإيجابية، إلى آخر ما نتصوَّر من قلب للحقائق، فكم من بيوت كانت في عمار وبسبب ما كان من الخلق، من المجتمع هُدمت، وكم من امرأة راضية عن حالها وما قُسِم لها حوَّلوا رضاها إلى سخط.

فكان المقصود أن نفهم أن كثيرًا مما أنعم الله به على الخلق من صفات حميدة يمكن للمجتمع أن يحوِّلها إلى صفات ذميمة، وكثير من النعم التي أنعم الله بها على الأشخاص من حلم، وصبر يحوِّلونها إلى هيجان وإلى عدم انضباط، وكم من مُصلِح تصوَّر أنه سيذبُّ الذباب عن وجه أخيه فقتله، ونيَّته لا يُعذر بها؛ لأن من تصدَّى للإصلاح وجب عليه مراعاة الشرع!

وهذه النقطة غاية في الخطورة، وهي أن يكون المجتمع سببًا لتحويل النعم إلى نقم، وأن تكون مقاييس المجتمع سببًا لتحويل النعم إلى نقم! أن يأتي أحد فيثير نفسيتك بعدما كنت راضي عن الله، راضي عمَّا قسم الله لك، مؤمن أن الله هو الرزاق، مؤمن أن الله هو الذي يهيء الأسباب ويبارك فيها، وتعيش طمعانًا في أمر الآخرة، يأتي أحد فيثير في داخلك عدم الرضا، ويثير في داخلك عدم شكر النعمة، ويفتح عينيك على أمور في الدنيا أنت عنها غافل، ويريك في ثوبك الذي كنت تتجمَّل فيه من الصبر والرضا، يريك فيه عيوبًا، فيُخرِّقه عليك! وهو طامع أن تكون في يده مثل اللعبة، يحرك مشاعرك ويثيرك.

وكما ذكرنا كم من بيوت كانت عامرة بالرضى، والقبول للحال، وهي تعلم أو لا تعلم أن وراء هذا القبول والرضى عن الله خير كثير، ونِعَم، ورضى من الله وبركة، وفرج في الدنيا قبل الآخرة، والآخرة وما أدراك ما الآخرة!

وقد كانت الصفة التي مُدح بها بني إسرائيل وهم في عهد فرعون والتي سبَّبت لهم النصر هي: **الصبر** {لَمَّا صَبَرُوا}[1] فكيف يتحوَّل الصبر والرضا والإحساس بالنعم والرضا عن المُنعم وانتظار الخير منه وتبديل السيئة بحسنة، كيف يتحول هذا كله إلى سلبية؟! إلا أنَّ المجتمع يتلاعب في تفكير الناس!

وقد مررت بامرأة تعدَّت الخمسين أتت تذكر لي أنها عانت من مرض في شبابها في سن 25 و30 من حالة نفسية لم تعرف ما معناها، وكان في وقت كلامها لم يكن منتشر الكلام حول الحالات النفسية، مع المناقشات تبيَّن أنها امرأة لها بنات من العمومة، وقد أنعم الله-عزَّ وجلَّ-عليها وبُكِّر لها بالزواج وكان تعليم المرأة في أوله، فأنعم الله-عزَّ وجلَّ-عليها وبُكِّر لها بالزواج ولم تستطع إكمال دراستها، بنات عمومتها أكملوا إلى أن وصلوا درجات عالية لكن ابتلوا بالعنوسة، وهي رزقت بأبناء وبنات عائلة ثم أبناءها وبناتها تزوَّجوا مبكرًا فأنجبوا لها، فأصبحت بنشاطها جدة، وأولئك بنات عمومتها بقوا في حال عنوسة، هذه المرأة حين تقدَّم بها العمر وكبرن بناتها ساعدوها على إتمام الشهادة الابتدائية ثم دخلت مدارس التحفيظ وبدأت تحفظ القرآن، وقد أتمت منه جزءً كبيرًا، لكن تقول: الذي أصابني في ذلك السن لازال يراودني.

ما الذي أصابها؟! وما السبب؟

أصابها حالة من الاكتئاب والله أعلم، والسبب كلَّما تلتقي ببنات عمومها يحقِّروا حالها، وينظروا لها ولأبناء أولادها وبناتها بنظرات، ويلقوا كلمات-كما تتصوَّرون-يشعرك أن هذه قبيلة آتية، يشعرك أن كيف تؤكلينهم وتشربينهم هؤلاء وأنت أصبحت الآن مجرَّد خادمة؟ ثم يبذلون جهودهم أن يلمِّعوا حياتهم التي يعيشونها.

تقول: حين تقدم بي العمر أذهب الله الاكتئاب الذي كنت أشعر به وعدم الرضا، أذهبه بصورة لا أعلمها، لكنه الآن يراودني في لحظات.

في نهاية النقاش كيف يكون الحل مع هذه المرأة؟ أن نعُد النعم الآن، نعد النعم التي عاشتها؛ فمن وجود الذرية، وأنسها إلى حفظ القرآن المؤنس في القبر، مع صلاح الذرية، وبقاء المُثل العليا مع المرأة نتيجة عدم انفتاحها على المجتمعات الخارجية، وقد جعل الله لهذه المرأة من الذريَّة الطيبة من أولادها الذين لهم أماكن في المجتمع بارزة، فجمع الله لها الخيرات، ذريَّة طيبة، وحفظ لكتاب الله-عزَّ وجلَّ-، وأنس في الدنيا، وإن شاء الله يكون أنسًا لها في القبر، في مقابل من كان يُكثر عليها اللوم وهو في مثل سنِّها، ها هو تقاعد من العمل، وها هو يعيش في بيت طويل عريض لا ذريَّة له ولا أنيس، والله أعلم بما بينه وبين ربه.

فالشاهد من هذه القصة، ولأن هذه حال احتجنا فيها إلى مناقشات، تبيَّن كيف يحول المجتمع النعمة التي خصَّك الله بها إلى نقمة، وربَّما يكون السبب حسدًا في القلب أو عدم رضا، أو قد يكون السبب انقلاب الموازين.

المقصود: أننا نتأمَّل المسألة جيدًا، ولا يسرق عقلنا أحد، لا أصبح مؤمنًا وأمسي كافرًا بنعمة الله، ولا أمسي مؤمنًا بنعمة الله وأصبح كافرًا بها؛ لأن هذا تخطَّفني، وهذا انتقد النعمة التي عندي، أو لأن هذا قال لي: أنت فرحان بالآيات التي تحفظها، أو

(1) [سورة السجدة: 24]

العلم الذي تجلس عليه؟! انظر إلى الناس حصلوا على شهادات وحصلوا على مراكز! فلا يتخطَّفك الناس بكلامهم، بل اجمع قلبك على الحمد له، وعلى تنشيط نفسك في الإحساس بدقائق النعمة.

الأمر الثالث الذي يسبِّب تغذية نسيان النعم: البلاءات التي يعيشها الإنسان فيتحوَّل من ذاكر للنعمة إلى يائس كفور ناسٍ لنعمة الله عليه.

هذا الموضوع يطول النقاش فيه ويتفرَّع، ويلامس الواقع، وهو في الحقيقة موضوع لا يبلى من طرحه ولا تنتهي زواياه، إن شاء الله في اللقاء القادم نتكلَّم عن نماذج للشاكرين ذكرها الله-عزَّ وجلَّ-في كتابه، وفي اللقاء الذي بعده نتكلَّم عن نماذج للكافرين الذين وقعوا في بطر على النعم التي أنعمها الله-عزَّ وجلَّ-بها عليهم وكيف كان جزاؤهم.

نسأله-سبحانه وتعالى-أن يجعلنا من الشاكرين الذاكرين الذين امتلأت قلوبهم معرفة به-سبحانه وتعالى-وامتلأت رضا عنه، وامتلأت يقينًا بأنه مالك المُلك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممَّن يشاء، يُعزُّ من يشاء، ويُذلُّ من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

نهاية اللقاء الأول

اللقاء الثاني

عناصر الدرس:

- **ما هو السقف الأعلى من النعم؟**
- **الربط بين عبادة الشكر وواقع الناس.**
- **صورة العقل الذي ينكر النعمة والحلول المقترحة له.**
- **كيف أكون من الشاكرين؟**
- **أقسام الناس في الشكر.**

اللقاء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحمد لله الذي سهَّل طرق العلم ويسَّر الوصول إليه، وهو-سبحانه وتعالى-الممتنُّ أولًا بهذا الباب العظيم-باب الوصول إلى العلم-، وهو الممتنُّ بانتفاع الخلق بالعلم، فنسأله-سبحانه وتعالى-كما شرح الصدور لطلب العلم ويسَّر الأمور لذلك نسأله أن ينفعنا بهذا العلم في الدنيا والآخرة. اللهم آمين.

إنَّ موضوع عبادة (الشكر) مهما كُرِّر طرحه لا يملُّ من طرحه من جهة، ومن جهة أخرى فجوانبه لا تنتهي.

وأمَّا مناسبته للأحداث الواقعة في المجتمع فمناسبة واضحة، فإن غياب هذا الحديث عن عقول الناس أورثهم الطمع، فإذا ورث الناس الطمع هاجوا لأقل سبب.

يقول النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًا فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ طَعَامُ يَوْمٍ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا))[1] وهذا النصُّ لابدُّ من الوقوف أمامه وقوفًا طويلًا من أجل أن نفهم على ماذا نشكر وقتما نتكلَّم عن الشكر؛ لأن الطمع يجعل النفوس تتجاهل النعم، لا يشعر الإنسان بالنعم التي أنعم بها الله عليه، فلو أردنا ذكر السقف الأعلى من النعم-كما يعبِّرون-أي ما هو الشيء الذي لو ملكته تكون ملكت الدنيا بحذافيرها؟ في النص لم يصف الحد الأدنى، لم يذكر لي في النص: الرضا بما قُسم لك على مضض، وقل هذه قسمتي ونصيبي وأمري لله! لا، هنا يقال لك: هذا الحدُّ الأعلى من النعم، ما دليلي على هذا المفهوم من النص؟

(فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا) فتصوَّر كيف يحدِّد في النص لك الحد الأعلى من النعم، وعلى هذا ستبني مشاعر ذكرك وشكرك وثناؤك على الله ورضاك وانشراح صدرك بكل شيء أمامك، فكلها مبنية على معرفتك للسقف الأعلى من النعم، يعني أعلى شيء تتمنَّاه، شيء لو وُجد عندك فكأنَّما حزت الدنيا كلها.

ما هو السقف الأعلى من النعم التي لو جمعت لشخص حيزت له الدنيا بحذافيرها؟

أمور، وكل شخص منَّا يضعها أمامه ويرى كم يتحمَّل من عبادة الشكر في اليوم والليلة، إلى أي درجة يجب عليه أن يكون شاكرًا.

سقف النعم:

- **آمنًا في سربه.**
- **معافى في بدنه.**
- **عنده طعام يوم.**

(1) رواه الترمذي في سننه، وحسنه الألباني.

أسألكم بالله هل في بيوتنا طعام يوم؟! لا، وغالبنا أصبح يستخدم أسلوب الشراء الشهري وينتهي الشهر ولازالت الأشياء موجودة! فما واجبنا العظيم اتجاه ربنا الذي أنعم علينا؟ هذا الحديث يربط بين عبادة الشكر اليوم وبين الواقع الذي نراه.

إننا نرى واقعًا يتذمَّر أهله من النعم، يتذمَّرون من نعمة الأمن التي يبدلها الله-عزَّ وجلَّ-خوفًا، وهذا جراء ما يفعله الإنسان بنفسه، يخرج يخرب أمنه ويجعله خوفًا! وهذا هو نفسه الذي يخرج فيعرّض بدنه إلى الهلاك وقد كان معافا في جسده! وهذا نفسه الشخص هو الذي يخرج ومعه طعام يومه ويريد طعام سنين! فما ترى في القوم إلا طامعًا أو مثيرًا للطمع، وإذا ناقشته أو سألته يشير إلى أصحاب القصور، يقول لك: انظر ماذا يفعلون وبماذا يتمتعون! فأصبح الطمع حقا هو المحرّك، وأصبح من جهة أخرى عدم الشعور بالنعمة بل وكراهيتها هو الذي أفنى الخلق، وأذهب نعمهم.

نحن الآن محتاجون إلى أمرين:

1. أن نعرف ما صورة العقل الذي ينكر النعمة، ما فلسفته بحيث يصل لحد أن ينكر النعمة؟
2. ما هي الحلول المطروحة، كيف يحل قضاياه ومشاكله التي يعيشها؟

نبدأ بالعقل. كيف يفكِّر الإنسان وهو في حال طمع؟

لا شيء يقنعه، كلَّما مُدَّ له بنعمة، لا تناسبه! وتكون مشاعره أنَّه إلى الآن ما جاء الذي يريده. فهذا دائمًا كافر بأنعم الله، وهذا هو تفكيره المُسيطر عليه.

وهذه الصورة الكبيرة لها صور صغيرة تحصل دائمًا بتكرار، فالمرأة مع زوجها تكفر النعمة، المرأة مع عشيرها تكفر النعمة، يعطيها من الخير ثم تقول له: ما فعلت لي شيئًا، وهذا نفسه مع الله، يكون الإنسان في أثناء الأزمة منكسر ذليل يا رب يا رب فرّج علي! فإذا فرَّج عليه {مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ}[1].

النتيجة أن تفكير الشخص الطماع يحكمه الطمع بحيث تكون النتيجة أن يكون كافرًا طوال الوقت، كلَّما مُدَّت له حبال النعم قطعها بعدم الشكر، دائمًا يتطلَّع إلى ما في أيدي غيره، يكلِّمك عن الناس ويقول إن هؤلاء عندهم وهؤلاء عندهم.

وفيه أيضًا صفة عجيبة وهي أنه لا ينظر فقط إلى مَن هو أعلى منه بل إلى مَن هو أدنى منه! يعني يكون موظَّف محترم في شركة أو في الحكومة، ثم يسمع عن سائق أجرة يكسب في الشهر مثلًا 4 آلاف، ولا حتى رُبع راتبه، ثم يقول لك: انظر كيف تركوا هؤلاء يأكلوننا! فيتكلَّم عمَّن هو أدنى قائلًا: لماذا يكسب كل هذا؟ هذه مواقف حقيقية يعيشها الناس بهذه المشاعر!

فيجمع بين أمرين:

1. كفر بكل شيء يعيشه.
2. وطمع في كل شيء بين يدي الناس.

(1) [سورة يونس: 12]

وكلَّما كلَّمته عن أحد يقول لك: لا تدري ماذا عندهم أو ماذا جمعوا وفعلوا! يرون حال كل أحد أحسن من حالهم. فأنت الآن مستقر وفي بيتك ووظيفتك وتخرج من الدوام وعندك أيام إجازة وبدلات، كل هذا لا يراه ويرى الذي يأخذ ربع راتبه وهو ليلًا ونهارًا يعمل! فهذا كلُّه إشارة إلى مشاعر الكفر بالنعمة، وعلى هذا: هل هذا الشخص عنده سقف أعلى لمطامعه؟ لا، ولو قلت له: قل الحمد لله. يقول: على ماذا؟! وإن كان ما قال بلسانه فعيناه تنطقان: ماذا عندي لأقول الحمد لله؟!. والكفر بالنعمة حكمه كفر أصغر، يعني كبيرة من الكبائر وليس أكبرًا مخرجًا من الملَّة.

ما هي الحلول عند شخص انطبقت على قلبه مشاعر الكفر بأنعم الله؟

سأصوِّرها بصورة أسرة، بيت، وتصوَّر كيف تأخذ المرأة حلولًا، هي نفسها يأخذها هذا الذي عنده مشاعر الكفر.

المرأة عندما تكفر عشيرها، تكفر زوجها، لا ترى له عليها فضلًا أبدًا، لا بالستر، لا بالبيت، لا بالإنجاب، لا أكلها، ولا شربها، كل هذا ساقط عندها. ما هي الحلول في وجهة نظرها؟ تسعى إلى ماذا؟ تتمرَّد عليه، تعصيه، تخرج عليه، وفي الحالات البعيدة تصل إلى حد الخيانة، لكن قبل ذلك تتمرَّد، ترفضه، فبدأ إحساسها بأنها مشكلة، فترى حل المشكلة التي تعيشها بالسحب الذي يؤدِّي إلى الانهيار، مستعدَّة أن تخرج من بيتها وينطبق بيتها رأسًا على عقب من أجل أنه ما استجاب لطلبها!

بيت وأسرة ونعمة عظيمة من الله-عزَّ وجلَّ-مستعدة أن تهدمها من أجل أن مائة طلب ما نُفِّذوا، مائة طلب ألا يقابلها ألف نعمة؟! بل آلاف، لكنك تكلِّم مَن بهذا الكلام؟ تكلِّم شخصًا لابد أن يكون عنده تفكير الإحساس بالنعمة لا الكفر بالنعمة مطبق على قلبه، عندما يكون تفكير الكفر مطبق على القلب لا خط رجعة مع الأشخاص، إمَّا تسايره على هواه أو تكون متعصِّبًا للطرف الثاني!

وهذا الشخص تجد أنه لا شيء عنده يرضيه، هو بنفسه لا يعلم ماذا يريد! ليس لديه سقف أعلى لو تحقَّق له يرضى، فمن ثمَّ مهما أعطيته لا يقتنع، يضع عينه على شيء معين عندما تعطيه إيَّاه يقول لك: ما عاد له طعم، أتعبتموني حتى أعطيتموني إيَّاه، بعد ماذا أتيتم به؟! نقول له: ما الحل؟ ماذا تريد؟ فمباشرة تكون حلوله هي هَدُّ هذه النعمة، رفضها، عدم الصبر لكي يصل إلى مراده.

كل ما فات كلام في وصف المشكلة، ويؤسفنا أن هذه المشكلة منتشرة على جميع الأصعدة سواء كان هؤلاء مثقَّفين متعلِّمين أو خلاف ذلك، على نفس التفكير، لا يرضيهم شيء، كل هذا الذي نقوله وصف لكلمة واحدة: الطمع في الدنيا التي نحن على يقين أنها زائلة، والطمع مزيل للعبد مزيل للنعم، كم من طمع زالت عنه النعمة أو زال هو عن النعمة.

ندخل مباشرة للحل ثم نعيد من جديد الكلام الذي مرَّ معنا سابقًا عن الشكر.

ما الحل الذي نقوم به في حال أناس نفسياتهم بهذه الصورة-وهم حولي: ابن، زوج، جار، قريب، أخ، أخت-لتنخفض نسبة الطمع الحاصلة في الدنيا؟

نبدأ بأنفسنا أولًا: سقف الآمال والطموحات، هذا السقف لابد أن يأخذ مسارين من أجل أن يعتدل: طمعك في الدنيا ما حده؟ وطمعك في الآخرة ما حده؟

خفِّض سقف الطمع في الدنيا–الطموحات–وعلِّي سقف أطماعك في الآخرة

الجهة الأولى يسيرة وواضحة، أن تضع سقفك كما في الحديث، ردِّد على نفسك: أنا أحتاج إلى ثلاثة أمور كل يوم، واليوم الذي بعده الله أعلم هل أكون موجودًا أو لا.

1–آمِنًا فِي سِرْبِهِ، ولست خائفًا، ومشاعر الخوف لا توصف في تفتيت النفس والقوى! والذي شعر بالصغار عندما حدث السيل ورأى الخوف وكيف يفقد الإنسان كل قواه في الخوف، يفهم ما معنى الأمن، والمسألة تحتاج لقراءة شخصية في وضعك والواقع، أو لأجل أننا مؤمَّنين فلمَّا يُقال لك: الأمن. لا تشعر به! لابد أن تشعر وتقرأ الواقع.

تحكي إحدى الأخوات مرَّت بموقف قريبًا في إحدى أحداث الدول المجاروة، بسبب الانفلات الأمني الذي حدث ذاك الوقت، قدَّر الله لها وهي خارجة من بيتها أن ترى حالة اختطاف لفتاة، والفتاة قدماها خارج السيارة ما استطاعوا سحبها جيدًا وهي تصرخ بكل صوتها، ما استطاعت أن تتدخَّل، تقول: جثوت على ركبتي، شُلَّت قواي! مع أنها لم تتعرَّض للموقف إنَّما مجرَّد شاهد رأى.

فالأمن مسألة خطيرة، لكن لأجل أنَّا نرتع فيه بمنَّة الله وحفظه لا نشعر به ولا نشكر الله عليه، وكثير من الناس عندهم استعداد ليسبِّبوا الانفلات الأمني، وذاك الوقت يأتي الندم في وقت لا ينفع فيه الندم، والسعيد مَن وعظ بغيره لكن الله المستعان!

لابد أن تشعروا بمشاعر نعمة الأمن، فنبدأ بها أولًا، نضعها أعلى شيء في سقفنا، فغاية طموحاتي في الدنيا أن أبقى آمنا، أستطيع أن أفتح مصحفي وأقرأ وقتما أريد، أستطيع أن أتوضأ وأجدِّد وضوئي وقتما أريد، وأستقبل القبلة وقتما أريد، وأدخل مطبخي وقتما أريد، وأشتري من الدكان وقتما أريد، أستطيع أن أرسل أولادي للدكان، ويذهبون إلى مدارسهم بكل يسر وسهولة. هذه يجب أن تكون أعلى نعمة، تتمنَّى أن تبقى محفوظة، وهذا ليس كلامنا بل كلام المصطفى–صلى الله عليه وسلم–.

وكل مرَّة أذكِّر نفسي به لأن هذا التذكير سيسبِّب لك بالطبع الشكر والحمد الكثير، وليس الشكر البارد والحمد الذي بين جنباته شعور بالتنغيص! لا، حقًّا تقول: الحمد لله كثيرًا.

هذا الأمن هو الذي يسبِّب لنا ممارسة الحياة بصورة طبيعية، بل وأعلى من الحد الطبيعي، نحن نمارس الحياة في الحد الأعلى من الطبيعي، فها نحن نتنقل لطلب العلم وزيارة الأهل وأخذ العمرة والحج وزيارة مسجد النبي–صلى الله عليه وسلم–، كل هذا تحت سقف الأمن، والذي ما عنده سيارة يستأجر أو ويرزقه الله مَن يوصله معه، لكن لو لم يوجد الأمن فكل الحلول لا تُجدي!

من أجل أن نكون من الشاكرين وليس من الكافرين لابد أن نضع حدًّا صحيحًا لمطامعنا في الدنيا، يبدأ السقف بأني آمن، وإذا أتى الأمن العام انتفع الإنسان بكل شيء ولو كان صغيرًا.

2–مُعَافًا فِي جَسَدِهِ، فكم من صاحب مال ولكن شربة ماء لا يستطيعها! فهذه المطامع العجيبة تدور وتنتهي في لا شيء، فانظر كيف عافاك الله، وانظر كيف حين يصيبك شيء بسيط من الصداع، وهذا الصداع يصيب غالب الناس بحيث يكون من نعيم الجنة

أنهم لا يصدَّعون، تصوَّر الصداع البسيط الغالب الذي يصيب حتى الحيوان، كيف ينغِّص عليك الساعات، كيف تصبح عصبي عندما تكون عندك آلام، وانظر كيف يكون حالك حين يؤلمك سنَّك أو يُجْرح جزء من بدنك أو ترتفع حرارتك، انظر كيف تُنغَّص الأشياء بسبب أنك ابتليت في بدنك، فالعافية التي تعيشها هذه إحدى آمالك التي تراها أملًا وتحمد الله–عزَّ وجلَّ–على وجودها وتُكثر من الشكر ويسبِّب لك الإيمان بأنك ملكت الدنيا بحذافيرها.

3–عِنْدَهُ طَعَامُ يَوْمٍ، واندفاع الجوع يكون بأدنى شيء، وأهم شيء يكون عندك طعام اليوم، فإذا اجتمعت هذه الثلاثة لابد أن تفهم داخل نفسك أنك ملكت الدنيا!

لا يكفي أن تشعر بالنعم الثلاثة؛ لأن أي شخص يأتي لك بوجهة نظر وقتها قد تغيِّر وجهة نظرك، أو يحكي لك عن رحلة ذهبها يمنةً أو يسرة فيُثير مشاعرك!

فبعد أن تعرف أن هذه الثلاثة هي سقفك الأعلى في الدنيا، بقي أن تجعلها في مشاعرك أنك ملكت الدنيا حقيقةً بحذافيرها، وهذا الشعور حتى يقع لابد فيه من تذويب مطامعك في الدنيا، اشعر أنها لا شيء، وكل نعيم في الدنيا فهو منغَّص، وعُد إلى الوراء وانظر كثير من المواقف التي كنت فيها سعيدًا بشيء من الدنيا وانظر كيف دخل عليك ما ينغِّصك وأنت تقول: (أنا ليس لي حظ، كلَّما أردت أن أكون سعيدًا أتى ما ينغِّصني!)، ما فهم أن هذه سنَّة الله ألَّا تصفو الدنيا لأحد من أجل أن تبقى الآخرة هي الأعلى، فلمَّا تجتمع هذه الثلاثة ما نريد أن تقول: نحن حالنا طيبة والحمد لله. بدون مشاعر، نريد المشاعر الأعلى، نريدك أن تشعر أنك ملكت الدنيا بحذافيرها، فأين هذا الشعور؟! نادِه؛ لأن هذا الشعور معناه أنك حقًّا تشعر بنعمة الله فلن تسكت أبدًا عن الشكر.

حدِّد ما هي الأمور التي تشكِّل سقفك الأعلى، ثم ستنتقل لمشاعر جديدة: وهي أنك لو وجدت هذه الأمور الثلاثة فأنت الآن ملِك.

للأسف أكثر من 8 أو 10 سنوات ونحن نسمع هذا الكلام في دورات كثيرة منتشرة في العالم الإسلامي، يقول لك: (لابد ألَّا ترضى بوضعك، لابد من التغيير)، ويرمون لك قنابل! النتيجة أن الطمع دخل في قلوب الناس.

- **عندما يدخل الطمع ماذا يحصل؟**

سأبدأ بالنساء، ترى نفسها في المرآة فلا يعجبها حالها، تذهب في الصيف وتعود امرأة أخرى!

من الذي يشعر بالنعم الثلاثة؟ شخص مَلّ الدنيا وأعلى آماله في الآخرة وفكَّر ماذا سيؤنسه في قبره.

- **يأتي من يقول: إذًا هل نتوقَّف عن الانجاز؟**

فارق شاسع بين قناعتك بما رُزقت وبين: ((احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ))[1] فهذه كلها حرث للسقف الآخر الذي نريد أن نعليه، يعني في الدنيا أنا قابل لهذه الثلاثة، أمَّا في الآخرة فأنا لا أقبل بالحد الأدنى، أريد الفردوس الأعلى، لكن كيف سأصل له؟! ((كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ))[1].

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصِّلة والآداب، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، 2664

فإذا كنت طبيبًا فالفردوس الأعلى سيأتيك من عند الطب، بالأمانة، والإخلاص، وتعليق الناس بربّنا، وإرشاد كل مريض إلى الله.

ولو كنت مدرّسًا تعلّمهم أن الأمر أمر الله، والعلم من الله، وإلزامهم بشيء من العلم عن الله، تفهّمهم أنَّ عبادة مثل الاستخارة مهمة في اتخاذ القرارات. فالمعلّم باب لتشكيل المجتمع، كلامه يحفظ على الصدور كأنه نقش لا ينتزع.

وهذا مُحاسِب...إلى آخر أصناف المجتمع، كلهم بلا استثناء مكانهم الذي هم فيه طريقهم إلى جنات عدن، وليس من مكان آخر.

ألم تسمع عن التاجر الذي وصف في الحديث أنه كان يتجاوز عن المعسر فتجاوز الله عنه؟!

وهذا ماشي في الطريق فوجد غصن شوك فأزاحه، فشكر الله له فغفر له.

وهذه صورة الحياة وأنت سائر في طريقك ستصادفك أبواب خير فلو فتحتها شكر الله لك فغفر لك.

من كل هذا الاستشهاد، نريد منك أن تفهم أن ترك السقف الأخروي لا يعني ترك الدنيا وعدم الاجتهاد فيها، كُلٌ منَّا يحرص على ما ينفعه، لكن افهم ما ينفعك، ومتى ينفعك، وينفعك في ماذا؟

وماذا عن مطامعي في الآخرة؟ لا يقل طمعك عن الفردوس الأعلى، لا يقل طمعك عن ثناء الله، وطوال سيرك في الحياة اجعل السقف الأعلى في مطامعك أن ينظر الله إليك فيرضى عنك، طوال الوقت تفكّر أنا من أكون عند الله؟ فلمَّا تقول لك نفسك: (تجمَّلي لأن فلانة ذوق وتفهم في الذوق ولو رأتك ستثني على ملابسك)، هذا الحوار دائر في نفسك رُدَّه وقل: (والله لا أريد إلَّا ثناء الله). ففي سقف الدنيا بقدر ما تستطيع اخفضه، أمَّا سقف مطامع الآخرة فعلِّه. طول الوقت فكر أن كل الفرص أتتك من أجل {سَارِعُواْ}، {سَابِقُوا}، في مكانك، فيما فُتح لك.

- أبناؤنا وصلاة الفجر، هذا مكان لسارعوا وسابقوا.
- أبناؤنا وحفظ آيات من كتاب الله، هذا مكان لسارعوا وسابقوا.
- أبناؤنا والاستقامة على ذكر الله، هذا أيضًا مكان لسارعوا وسابقوا، وهكذا.

المقصد أن يُفهم جيدًا أن الطمع يُنتفَع به لو جعلته طمعًا في الآخرة، لو وصلت لدرجة اليقين في أن النفع حقيقة هو النفع في الآخرة.

مثال: الحياة البرزخية، ماهي الحياة البرزخية؟ قبورنا، لكن اسمها حياة! فما الفارق بين الحياة الدنيا والحياة البرزخية؟

الحياة البرزخية لا عمل فيها، وأيضًا الحياة البرزخية الفارق بينها وبين الحياة الدنيا أنك في الدنيا كنت مع الناس، تأنس بهم، في القبر لن يكون إلَّا عملك، فنحن في الدنيا دائمًا نحاول أن نأنس، نبحث عن أنيس، ولا أحب أن أذهب إلى هذا المشوار إلَّا ومعي مَن يؤنسني، ولا أدخل على الناس إلَّا معي مَن يؤنسني، وماذا بعد ذلك؟! انظر إلى قبرك، لا أنيس إلَّا عملك! فلابد أن يصبح من مطامعك أن تجعل لك أنيسًا في قبرك، مثلما أنت حريص أن يؤنسك فلان وفلان في دنياك، ونحن نشعر بهذا ونشعر بكلمة الوحشة، تمرُّ علينا مواقف فيها وحشة، فاجعل من مطامعك الحقيقية أن يكون لك أنيس في قبرك.

---

(1) متَّفق عليه، رواه البخاري في صحيحه (7551)، ورواه مسلم في صحيحه (2649)

ما الذي يجعلنا ننقطع عن هذه المفاهيم ولا نُعلي سقف أطماعنا في الآخرة؟

1. **رفع مستوى الطمع في الدنيا**، مثل شخص يقول: (السبت سأزور فلان والأحد سأشتري كذا والاثنين، وإن شاء الله في الجمعة أقرأ آيتين من كتاب الله) فيأتي الجمعة وهو كسلان فينام! هذا الأسبوع هو صورة كل أسابيع حياته، بل صورة كل سنينه، صورته إلى أن تنتهي الرحلة!
2. **ضعف اليقين في الآخرة**، هناك يقين ضعيف في أننا سنلقى ربنا ونخرج من هذه الدنيا في لحظة وأننا سنحاسب على قليل العمل وكثيره، فجأة نسي المجتمع أن الغيبة حرام! لدرجة أن خطبة في الحرم المكي تتكلَّم عن الغيبة، لماذا نسي الناس أن الغيبة حرام؟ لأنهم استحلُّوا كل شيء أمام شهواتهم، تقول: (لا يجوز أن تتكلَّم عنه). يقولون: (لا، بل هو فاسق يحقُّ لنا الكلام عنه). أنا أريد دليل واحد فقط يدل على جواز غيبة غائب لفسقه بدون سبب! نحن لسنا في محكمة ليقول لي: فاسق. لأنَّ في محكمة ترفع دعوى وتتكلَّم لأنك ظُلمت. لكن هناك ناس لا علاقة لهم بشيء إنَّما يتفرَّجون فقط ويسمعون الكلام وينقلون ما يتناقله الكذَّابون، وهذا أقل وصف لهم إذا ما قلنا: عملاء. وأنتم تعرفون ما وصف الكذابين.

ورد في حديث في صحيح البخاري قال: ((الْهَرْجُ: الْقَتْلُ))[1]، وفي رواية الإمام أحمد قِيلَ: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: ((الْكَذِبُ وَالْقَتْلُ))[2] وهذا والله ما رأيناه، كذب ثم قتل! في وسط هذه الدوَّامة التي لا نعرف لها أولًا من آخر! يستحل الناس الغيبة وعندما تنبههم أننا سنأتي يوم القيامة وكُلٌ مِن هؤلاء سيأخذ حقه، وكثير مما تنقله لا تستطيع أن تثبته! ولو قيل لك: ما مصدر كلامك؟ تقول: سمعت وقالوا. كل هذا ستأتي بين يدي الله وتُسأل عنه فانظري كيف فعل الطمع في الدنيا في الإنسان، يسَّر عليه المحرَّمات المتَّفق على تحريمها، فنسيان الآخرة سبَّب له ممارسة المحرَّم وهو لا يظن أنه على هذا سيحاسب!

عندما وقعت فتنة الجمل وما جرَّت وراءها من بلاءات على المسلمين، ومعروف كيف أن عائشة-رضي الله عنها-كلَّما تُذكَّر بها تبكي حتى تبلُّ خمارها، والصحابة الذين اعتزلوا وعلى رأسهم ابن عمر وسعد ابن أبي وقاص-رضي الله عنهما-فلمَّا عاد القوم من هناك وأصبحوا يتكلَّمون في الموضوع وضعوا قاعدة لا استثناء فيها، قالوا: (فتنة سلَّم الله منها أيدينا فلنسلِّم منها ألسنتنا)، الأمر يحتاج منَّا إلى مراجعة النصوص، الأمر يحتاج منَّا إلى التقوى، أول ما ذكرنا موضوع التقوى كان رأس الجملة أننا ماذا نفعل في الفتنة؟ التقوى، تتقي الله، تخاف، تفهم أنك مسؤول، الفتنة تأتي عمياء صمَّاء لماذا؟ لأن الناس لا يرون الحق.

فكِّروا بالعقل الذي ستوافقه النصوص مباشرة، لو قيل لك إن هذا الطريق يوصل إلى أمر فاضل، وقيل لك من شخص آخر: هذا الطريق مهلك. أحدهما يقول فاضل والآخر مهلك! ماذا سيقول عقلك؟ يقول: اتَّقي هذا الطريق مادام أنه ليس شرطًا أن أمرُّ عليه، خصوصًا أنه ليس لي حاجة بسلوك الطريق، عندي مائة طريقة يوصلني للفضل غير هذا الطريق.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب ظهور الفتن، 7062

(2) رواه الإمام أحمد في مسنده، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير أسيد بن المتشمس فمن رجال ابن ماجة وهو ثقة

لذلك السلف عندما تكلموا على مواقف في الخروج على ولي الأمر فيأتون ليقنعوا بعض كبار العلماء أو التابعين، كان يقول لهم: أنا أفترض جدلًا أن ما تأمروننا به جهاد، هل هو واجب أو فضل؟ بالطبع لا يمكن أن يقولوا إن هذا فرض عين، فقالوا: فضل، فقال: هل أترك السلامة وأذهب للفضل وأنا أعلم أن فضلًا لا يمكن أن يعدل سلامة؟!

ثم أن هذه الأكف التي ترتفع في الثلث الأخير من الليل تسأل للمسلمين السلامة وانتشار العلم وانتشار السُّنة هي أكف أهل التقوى، لكن مَن تشوش لن تجد منه إلَّا الدخول في حديث النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ))[1].

- **أحتاج لأعيش حياة مطمئنة وأكون من الشاكرين أن أقوم بعملين:**

1. أخفض سقف الأطماع الدنيوية.
2. أرفع سقف الأطماع الأخروية.

عندما تقول للناس: خفِّضوا سقف أطماعكم الدنيوية يردُّون بكلام فيه انتقاد للتفكير وإشعارك بأنك سلبيّ، أنت تحفظ من كلام النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًا فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ طَعَامُ يَوْمٍ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا))، وهناك كلام لابن عمر أنه قال: "لو كان له خادم أصبح ملكا متوَّجًا!" على رأسه تاج، هذا أعلى شيء، أن أجد عندي ما آكله وبدني طيب وآمن في بلدي.

هل هذا يعني أنّ ليس هناك طموح؟ هناك طموحات لكن في شأن الآخرة.

يأتي مَن يقول: وما علاقة أمور الدنيا-كوني طبيب أو مهندس-بالأطماع في الآخرة؟

كل مكان أنت فيه لو حرصت فيه على ما ينفعك وتعبَّدت الله بعبادة الاستعانة وأردت بعملك أينما كنت أن تتقرَّب به إلى الله كان هذا من ضمن أطماعك الأخروية.

لو كنت معلمًا وعندي 45 دقيقة مع الطالب أمانة في عنقي، أشرح الدرس بالصورة المثالية وأنتظر ثناء الله، بذلك أصبحت أمارس الدنيا لكن طمعي في الآخرة، لابد أن تفهم هذا من أجل أن تجعل أطماعك كلها في الآخرة. طمِّع نفسك في ثناء الله، في جنات النعيم، فيما وصف-سبحانه وتعالى-في كتابه وعلى لسان رسوله من نعيم أهل الجنة، ثم اعلم أن كل الكربات في الدنيا لا شيء في كربة الآخرة، لكن تمر بكرب الدنيا من أجل أن تستغيث منها ومن كرب الآخرة، كأنه يقال لك: هل ذقت كربة الدنيا هذه؟ بالنسبة للآخرة هي لا شيء، فالمطلوب أن تستغيث من كربة الدنيا وكربة الآخرة. كنت تعمل ومطامعك للآخرة فجاءتك كربة فتحمل هَمّ كرب الآخرة، لو أنت في عمل اجعل مطامعك للآخرة، لو أنت في ضيق ونقص افهم أنك مررت به لتستغيث، فإذا استغثت من كرب الدنيا فكَّرت في كرب الآخرة.

نحن الآن نتكلَّم عن حل لشخص امتلأ قلبه كفرانًا بالنعمة وكان الحل عنده دائمًا أن يهدم النعمة التي عليه، فقلنا: المفروض أن أخفض سقف أطماعي الدنيوية وأعلِّي الأخروية.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي صلى الله عليه وسلم: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، 64

ما السبيل إلى رفع الأطماع الأخروية وخفض الأطماع الدنيوية؟

بالتدبر والتفكُّر.

عندي شخص انطبق قلبه كفرًا بأنعم الله، كلَّما مدَّه الله بالنعمة ما يشعر بها، وينظر لكل شيء يعيشه أنه ناقص، ومن ثمَّ كلَّما طمع أكثر ابتلي أكثر ونُغِّص عليه أكثر.

كان صغيرًا ويتمنَّى أن يسوق سيارة ولو مستعملة، أعطاه الله هذا السيارة، ركبها وما ناسبته، فأتته الجديدة، ما ناسبته، يطمع ويطمع ولا شيء يقطع طمعه! كل شيء يأتيه ينغَّص، ومن ثم كل نعمة تأتيه يكفرها! ما الحل؟ خفِّض سقف طمعك في الدنيا وارفع سقف طمعك في الآخرة. كل الناجحين المخلصين كان إخلاصهم من هذا الوجه: أني لست طامعًا في ثنائك، ولا في ثناء مدير ولا وزير، أنا أفكِّر في ثناء الله، ولهذا إذا كان هناك مدير أو وزير أحسنت، وبدونهما أنا محسن.

إذًا كلَّما تفكَّرت في الكون وتدبير الله له وأحداثه، كلَّما زاد انخفاض سقف الدنيا.

انظر لأغنى شخص في تفكيرك، بَرًّا كان أو فاجرًا، أين ذهب؟ إلى قبره، مَن هذا الذي نفعه مُلكه؟ عندما تتفكَّر في الكون فتِّش عن أعلى قيمة عندك وانظر إلى أفعال الله فيه، وانظر إلى دقيقتين تُزيل مُلكًا كانوا يظنونه مُلكًا عظيمًا، الذي أجرى السفن في البحر حملها إلى البر! من المصالح أن هذه الصور تنتقل إلينا، ومن المصالح أن ينهد إعجاب المعجبين.

التفكُّر يجعلك تقول: ماهي آخر آمالي؟ أبني قصرًا؟ لكن في دقيقة يمكن أن تهتز الأرض وينتهي كل شيء، يبلعني هذا القصر الذي أحبُّه وأفنيت عمري من أجل بنائه! ثم انظر، تبني لك قصرًا في الجنة بكذا وكذا من الأعمال الصالحة وأنت في مكانك، والقصر الذي في الجنة لا هزة أرضية تُزيله ولا سُرَّاق يدخلون عليه ولا جهدًا تبذله إلَّا التعلُّق برحمة الله–عزَّ وجلَّ–، فهذا التفكُّر يجعلك تخفض مستوى الطمع الدنيوي وترفع مستوى الطمع في الآخرة.

آخر ما وصلوا إليه في الحضارة أن الناس بدؤوا يتَّجهون إلى الشرق، وأكيد مُورِس عليكم لمدة سنتين أو ثلاث محاولة لجذب النفوس لها، وأنك يا مسلم ما فعلت شيئًا وانظر هؤلاء ماذا فعلوا! لسنا بحاجه إلى هزيمة نفسية، ثم لو الناس طمعوا في الآخرة، والله ليفتح الله عليهم أبوابًا لا يعرفون من بركاتها إلَّا ما يعرفون من العلم عنه–سبحانه وتعالى–.

ألم يقل–سبحانه وتعالى–في كتابه: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[1] وقد مَرَّ معنا شرح الآية وقلنا كما قال المفسرون: إن بينك وبين البركة باب يفتح لك لو آمنت واتَّقيت، فكل ما تريده من حضارة بيد الملك–سبحانه وتعالى–فآمن واتَّقيه، يقيك الله ويعطيك من حيث لا تحتسب. لكن الناس متصوِّرون أن كل شيء يأتي بالبذل والجهد والحول والقوة من أنفسهم، لا يعرفون أن الذي يفتح الأبواب هو الله–عزَّ وجلَّ–.

(1) [سورة الأعراف: 96]

اللقاء الثاني

1. إذًا تحتاج إلى التفكُّر في كل شيء حولك من مخلوقات الله وآياته، وانظر كيف يؤتي المُلك من يشاء وينزعه ممَّن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء.
2. ثم هذا التفكُّر يحتاج من جهة أخرى للتدبُّر في آيات الله-عزَّ وجلَّ-، اقرأ كتاب الله، وانظر لآياته-سبحانه وتعالى-انظر لكلمة (زلزال) وارفع قناعتك أن هذا كله الذي في كتاب الله حق يقين ولابد أن يكون.

لا زلنا في موضوع الشكر ومهما كرَّرنا في النقاش حول الشكر فلن ينتهي الموضوع لأن الشكر نصف الدين، والناس وُصفوا بأوصاف كثيرة حول الشكر، وُصفوا أن قليلًا منهم الشاكرين، وُصف الشيطان بأن جهده مبذولًا لكيلا يجعلهم من الشاكرين، وانقسم الناس إلى قسمين: شاكر وكفور، فعُلم من ذلك أن الشكر له مكانة عظيمة في الدين، وإذا تأمَّلت جيِّدًا تجد أن الشكر بالضبط هو حقيقة العبادة لأن العابد إنَّما هو شاكر، فكل ذكر وصلاة وصيام وطاعة وزكاة وصدقة إنَّما هي شكر لله.

ونتأمَّل في العقيقة التي هي إراقة دم شكرًا لنجاة المولود وأمه، فالذي يذبح عقيقة ويريق الدم المفروض تجتمع في قلبه هذه المشاعر، أني أريق الدم هذا الثمين من أجل أن أشكر الله أن سلَّم المولود وسلَّم أمَّه، وعلى هذا قس جميع العبادات: أنها شكر متجدد للمولى-سبحانه وتعالى-الذي أولى الخلق النعم، ولذلك تجد الناس {إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[1] إمَّا شاكرًا للنعمة وإمَّا كافرًا بها.

نطرح الموضوع من ثلاث جهات:

1. حقيقة الشكر وبواعثه.
2. نماذج من الشاكرين في كتاب الله.
3. نماذج من الكافرين في كتاب الله.

أحسن نموذج في الشكر هو سليمان-عليه السلام-والله-عزَّ وجلَّ-في سورة سبأ أخبر عنهم ووصف حالهم {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}[2] فعُلم من ذلك أمران:

كل عمل تقوم به طاعة لله هو شكر، والناس في مقابل نعم الله قليلًا ما يشكرون، فصنف لا يشكر، وصنف إذا شكر فشكره قليل.

فتلخَّص الصنف الأخير وهو الشاكرين، هؤلاء الذين يلهجون بشكره والثناء عليه-سبحانه وتعالى-وحمده واستشعار معنى اسم **الحميد**، هذا الاسم غاية في الأهمية، وهذا ما استقر في قلب الشاكرين، وهذا ما انتفى عن الكافرين.

لو نظرت لنموذج الكافرين ستجد أحسن مثال في ذلك: قوم سبأ، رزقهم الله-عزَّ وجلَّ-بلدة طيبة، وعاملهم الله-عزَّ وجلَّ-بمغفرته {وَرَبٌّ غَفُورٌ}[3] ومع ذلك ما استعملوا مع الرب الغفور إلَّا البطر! فوقع منهم البطر على أنعم الله، والبطر من أخوف المشاعر

(1) [سورة الإنسان: 3]

(2) [سورة سبأ: 13]

(3) [سورة سبأ: 15]

وأكثرها إهلاكًا للنعم، وهذا المقياس قبل أن أتكلَّم عن حقيقة الشكر، اجعله في عقلك: كل أمر صغيرًا كان أو كبيرًا أنعم الله–عزَّ وجلَّ–به عليك تشعر أو تُظهر أنك لست بحاجة له فقد آذنتَ هذه النعمة بالزوال، كل مرَّة تقول فيها على نعمة: (أنا أستطيع أن أعيش من دونها، هي ليست ضرورية لي) وكثير من النساء يقولون لأزواجهم: (أموال عندي، وسيارة عندي، وسائق عندي، ماذا أريد بك!) أليس هذا الكلام يقال؟! هذا إيذان بزوال النعمة! وانظر لها عندما تزول ماذا تفعل!

فنحن نحكم على صغير ممتلكاتنا وكبيرها بالزوال بهذه الصورة، وكم مِن نعمة كُفرت فكان كفرها إيذانًا بزوالها! ومع ذلك يعاملنا الله بحلمه، برغم كثير الكفر لكن ترى قليل الإزالة.

أكثر ما يخيفنا أن نسلك مسلك قوم سبأ ونحن لا ندري! لأن قوم سبأ ما كانوا يظنون أن ما هم فيه من النعم سيزول، ما كان يمرُّ على خاطرهم أن مرَّة واحدة ينقلب الأمن إلى خوف، وتنقلب البساتين... والذي حصل لهم هم جنوه على أنفسهم! أنتم على يقين بأن الله–عزَّ وجلَّ–لا يظلم أحدًا، وهذا اليقين يجعلنا نؤمن أن كل الذي يزول من النعم إنَّما هو جزاءات، فمتى استقر في قلبك عدم الرضا في أمر، فسينقص عليك هذا الأمر.

واعلم أنَّ حلم الله طويل وهذا الذي يغرُّنا، قبل عشرين سنة تقول المرأة: 2 أو 3 أطفال يكفونني، وبعد عشرين سنة تدور في المستشفيات تطلب علاجًا لما أصابها، لذلك حين تنجب المرأة ثم لا تأتي بأطفال. نقول لها: راجعي ماذا قلتِ سابقا! لأن غالبها تكون جزاءات، وأكيد في عقل غالبكم صور من هذه، الذي يحتك بالمجتمع يرى هذا الأمر، وهذه تقول لك عندما ولدت قلت: (محرَّم علي أن أنجب مرة أخرى، ومَن هذه المرأة التي عندها عقل وتنجب مرة أخرى؟!) وكل هؤلاء دفعوا ثمن أفعالهم.

فالناس لا يشعرون بآثار بطرهم على النعمة. أنواع من البطر: بطر على الأزواج، على البيوت، على الأبناء، على الأمن والأمان، على أشياء كثيرة، لكن الله المستعان.

← **نبدأ بحقيقة الشكر أولًا:**

الشكر عمل مبدؤه عمل القلب ثم ينطلق على اللسان.

- **بماذا سيشعر القلب من أجل أن يحقِّق عبادة الشكر؟**

الشاكر وقع في قلبه ثلاثة أمور:

1. شعر بالنعمة، فهناك مواتًا عن النعم.
2. نسبها إلى المُنعم.
3. شعر بفضله عليه.

1) الشعور أنها نعمة؛ لأن كثيرًا من الناس يشعرون بأن النعم نقم، كثير من الناس ينظر إلى النعم على أنها نقم، مثل الزوج، الأبناء، الخَدَم، الإقامة في ديار المسلمين، وهذه من النعم العظيمة، بقاؤك في ديار المسلمين مهما كنت تراها ضعيفة في تقدُّمها وحضارتها،

وكثير ممن يعيش في ديار المسلمين أهم أحلامه أن يخرج يمنةً و يسرة إلى ديار الكفر، ولا يشعر بقدر نعمة بقائه في ديار المسلمين وسماعه للأذان وإقامة شعائر الدين إلى آخر النعم التي نتمتَّع بها، فعندما تقول له: أنت في نعمة كونك في ديار المسلمين، يقول لك: (أي نعمة هذه؟!) فيشعر بأن النعمة نقمة!

فهذا الأمر على مستوى حياتنا أو على مستوى الأمم، أو على مستوى المجتمعات موجود، كثير من النعم التي يتمتَّعون بها لا يشعرون بقيمتها إلَّا بعد زوالها، مثل من خرج على ولاة الأمر واستبدل الأمن بالخوف، وقد يحدث ظلم من الإمام لكن كما قال كلام ابن مسعود–رضي الله عنه–عندما يقول: "إن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفُرقة" فهناك أمور نكرهها في الجماعة، فعندما تكون الجماعة تكون هناك قوانين صارمة.

ترى حولك حصلت الفرقة، وحصلت الفوضى في العالم الإسلامي، ووجد الناس هامش حرية–كما يعبِّرون–كان الناس يُضيَّق عليهم في أمور معيَّنة حتى أهل الدين والدعوة وجدوا هامش حرية، فهناك أشياء نحن نراها نقمة وهي في حقيقتها نعمة، لكن أصل القصة اللعبة الكبيرة، وهي إقناع المجتمع بمفهوم الديمقراطية على أنه مفهوم حرية، وهو في الحقيقة مفهوم فوضى، وليس من المفاهيم الشرعية، فالقصة من أولها فيها خطأ في الفهم ومن ثم ترتب عليها الباطل فوق الباطل.

يؤسفنا أن بعض الناس وخصوصًا من طلَّاب العلم لا يعلمون أن هذه الأمور مسيَّسة ولها مقاصد، وأنت في أعظم نعمة وأنت بعيد عن هذه المصيبة.

كثير من المصلحين يظنون أنهم لو عدَّلوا الأعلى وهم الحكومات يتعدَّل الأدنى وهم الشعب، والواقع والحقيقة وما مَرّ به المسلمون يدل على خلاف ذلك، وكذلك المنطق يدل على خلاف ذلك، بمعنى أن الإصلاح يكون من الأدنى إلى الأعلى وليس العكس، كلَّما أصلحت النفوس، وحُبِّب الدين إلى الخلق، واشتاق الناس لرضا ربهم، فُتحت لهم أبواب الرضا، وكلَّما خالفوا ذلك اختلف الأمر وسُلِّط عليهم.

فالمقصد أن تكون شاكرًا حقًّا وتشعر بالنعم، ولابد أن تكون واعيًا من أجل أن تشعر بالنعمة، فلمَّا تكون هناك بلاد تحفظ بناتها من الاختلاط وتمنعهم من مصيبة كبيرة اسمها الزنى، يأتون ويحاربون هذا! واسمع وانظر واقرأ في كثير من التقارير والبرامج الوثائقية.

مثلا: في جنوب أفريقيا تحصل 132 حالة اغتصاب في اليوم، هل تتصوَّرون؟! السبب معروف، انفلات أمني مع اختلاط، أصغر أم كانت طفلة في بريطانيا عمرها 9 سنوات وقع عليها زميل لها في المرحلة المتوسطة، هي مدرسة مشتركة بين أولاد وبنات وابتدائي ومتوسط، كتبوها في مقالة في جريدة: (أصغر أم)! وصل الأمر إلى أن يصبح عاديًا، لذلك عندما كانت تركيا دولة إسلامية أيام الدولة العثمانية، فأتى بريطاني يقول: (ما بال نساؤكم لا يجالسن الرجال وليس عندهم جرأة على الخلطة؟) بكلام يتصنَّعه، فردوا عليه: (نساؤنا لا يريدون أن يختلطوا بالرجال لأنهن لا يردن أن يحملن من غير أزواجهن) بكلام واضح؛ لأن النهاية هكذا، وشخص إمَّا غبي أو يتغابى الذي يرى أمرًا غير هذا، هذه حقيقة، والذي شَرَع أعلم بما في نفسك.

فالمقصود أننا نعيش في نِعَم، الشريعة متَّعنا الله بها، وزاد قبولها في قلوب المسلمين، وشرح لها الصدور، فهل تمتَّعت بها؟ وهل شعرت أنها نعمة عليك؟ وهل رأيت أن من واجب الشرع عليك أن تنشر محاسنه بين الخلق؟ وأن تعظِّمه بين الخلق؟ وأن تُشعِر الناس إلى أي درجة هم يتمتَّعون بنعمة الحكم بما أ نزل الله؟

وقد رأينا عيانًا مَن يتكلَّم على الدين على أنه تخلُّف، بل كما حملوا الشعارات يقولون فيه: (لا للدين، لا للتخلُّف)! ومثله في قنوات فضائية ومقابلات مع مشاهير أو مَن يُعتبرون رموزًا، بدون أن يدركوا يخرجون ما في أنفسهم ويبيّنون أن أخوف ما عندهم أن تكون الشريعة هي الحاكمة.

فنحن نحتاج من الأدنى إلى الأعلى، أن نشعر بنعمة أن الله شرَّع لنا شرعًا، يُفهم هذا الشرع، يقترب من الناس، يُبيَّن، فغالب مَن يتكلَّم باسم الشرع يشوِّهه، أي يعطيك مثالًا يقول لك: (أنتِ يا امرأة ليس لك في الورث إلَّا أقل من الرجل، أنتِ لك نصيب وهو نصيبان)، قبل أن يتكلَّم عن الأحوال ومتى يكون لك نصيب وله نصيبان وكأنه في كل الأحوال هو هذا الحكم!

المقصد: أن الشعور بالنعمة يسبِّب الشكر، هناك أمور كثيرة ونعم كثيرة حولك من أعظمها أنك مسلم، وأن لك شرع شرَّع، لابد من الشعور بذلك.

فمشاعر الشكر مبدؤها أولًا الشعور بالنعمة، وعدم كفرانها، وعدم الوقوع في مصيدة مَن يثيرك على النعمة، فنحن عندنا أناس كافرون ويبثُّون الكفر في نفوس الناس (كفر النعمة).

إذًا أول الأمر: لابد أن نشعر بالنعم، وهذا الكلام الكبير يشعر به فيبثُّه فيمن حوله، ولو عشت مع متشائم سيكون تفكيرك متشائمًا، عش مع مَن ينظر للأمور بنظرة سوداء سترى كل الأمور كما يراها، عش مع شخص يشعر بنعم الله ويحمده على كل شيء يأتيه، سيكون هذا الأمر، ولذلك بدأنا بالحديث أن هذا سقف النعم الذي لابد أن أذكِّر أبنائي به.

هذا الحديث: ((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًا فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ طَعَامُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا)) من المهم نشره؛ ليسمع الناس ما هو السقف الأعلى في الدنيا، ثم كلِّمهم عن جنات النعيم، هناك كثيرون يعيشون الغفلة، هناك مَن يعيشون كالإمَّعة: إن أحسن الناس يحسنون، وإن أساؤوا يسيؤون.

هناك أناس يتكلَّمون فيما لا يفقهون وتريد منهم كلمة واحدة قرؤوها أو درسوها في علم السياسة مثلًا، لا يعرف ما تعريف الديمقراطية أو الدكتاتورية في الحكم، سمع الناس يتكلمون فأطلق لسانه ونسي: ((مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ))[1].

2) نسبة النعمة إلى المُنعم: بعد أن شعرنا بالنعمة لابد من نسبتها إلى المُنعم، أنت الآن في أمن وأمان، وعندك قوت يومك بل أسبوعك بل شهرك، أنت معافى في بدنك، مَن صاحب كل هذه النعم؟ **هو وحده لا شريك له**، وإذا كان هو وحده لا شريك له الذي أعطاها، فهو وحده لا شريك له إذا أراد أن ينزعها نزعها، وهذا الفهم يجعلك لو أردت أن تعالج فقرًا، بطالةً، جوعًا، جهلًا،

(1) رواه الترمذي (2317)، وابن ماجه (3976)، وأحمد (201/1) (1737). وصححه الألباني.

تعرف إلى أين تتجه، فهو الذي يفتح على الخلق بركات من الأرض والسماء، وهو الذي يمنع هذه البركات، ومَن يعرف العصر الحديث فقط يفهم هذه المسألة جيدًا.

ها هي أرض القصيم قبل 80 أو 90 سنة كان أهلها في حالة من الجوع والفقر لا يعلمها إلَّا الله، حتى أنهم أتتهم سنة كانوا يموتون من الجوع والعطش! فكان الرجل منهم يرحل على جمل يبحث عن الماء، فالذي يفهم كان يربط نفسه على الجمل؛ لأن الجمل يعرف طريق الماء فيمشي، وهم من كثرة الجوع والعطش قد يغمى عليهم، فالذي لا يربط نفسه يموت ويسقط في الصحراء، والذي يربط نفسه يسير به الجمل حتى يصل لواحة فيسقيه الناس الماء ويطعموه فيعود! والآن القصيم أكبر واحة في الجزيرة تصدِّر التمر، {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ}(1) هي نفسها الأرض، لكن عندما فُتحت عليها البركة أصبحت مباركة، والذي يفتحها هو الذي ينزعها، فلو عاملت واحدًا لارتاحت نفسك وعلمت أين العيب والمشكلة.

فأنت الآن شخص شعر بالنعمة، المطلوب منك أن تنسبها إلى المُنعِم، وإذا أتت النقمة تفهم لماذا أتت، ولذلك لا تنس هذا الحديث أبدا: ((إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذِمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ)) ثم يختم النبي–صلى الله عليه وسلم–الحديث بقوله: ((إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهٍ))(2)

فهذا الكلام يجعلك على يقين أنك تعامل واحدًا، والقوم لو وحَّدوا لصلحت دنياهم وأخراهم، لكن القوم عندهم شركاء متشاكسون في نفوسهم، وحتى أكون شاكرًا فأنا بحاجة أن أكون شخصًا أشعر بالنعمة، وأنسبها إلى الله، وأشعر بفضله–سبحانه وتعالى–عليَّ.

3) تشعر بفضل الله عليك: إذا نسبت النعمة إلى الله تشعر أن كل نعمة أتتك تناسبك، مِن فضل الله عليك أنه منع عنك كذا وأعطاك كذا، أنه قرَّبك من كذا وأبعدك عن كذا، وطيلة الوقت تقول: الذي أعطاني فهو من فضله أنه فتحه، وما منع عنّي فهو من فضله أنه أبعده عني. ومع الأيام ومعرفة الله ومعرفة النفس أقول: سبحان الله! يعلم ماذا يصلح العبد، أنا لا يصلحني إلَّا أن يبتعد عني كذا، أنا لا يُصلحني كلَّما غفلت إلَّا أن يأتيني ذاك الألم حتى أفيق. فكل شخص منَّا يعامله الله–عزَّ وجلَّ–بتمام فضله، وكم نحن اليوم نحمد الله–عزَّ وجلَّ–بعد كل هذه السنين أن كثيرًا من دعائنا لم يستجب؛ لأننا كنَّا في أول أمرنا مخدوعين في الدنيا نريد ونريد ونريد، وحين تقدَّم بنا العمر حمدنا الله أن كثيرًا من أمانينا لم تستجب وإلَّا غرقنا!

المقصد أن الشاكر حسَّاس جدًا تجاه النعم، ينسبها إلى الله ويشعر بفضله في العطاء والمنع، والناتج أنه سينفعل قلبه بهذه المشاعر وينفعل لسانه.

ـــ إذًا ما هو الشكر؟

الشكر عمل قلبيّ نتيجة الشعور بالنعمة. فإذا شعر بالنعمة نسبها إلى الله وأظهرها وأثنى على النعمة وعلى المُنعِم، هذا هو الشكر، ليس بأن يكلِّمك الناس طيلة النهار عن أبدانهم وأموالهم وأبنائهم وبيوتهم بصورة محتقرة، يكلِّمونك عنها وهم يحتقرون النعمة!

(1) [سورة الأعراف: 96]

(2) هذا الحديث رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي وأعله بمحمد بن مروان السدى وقال: ضعيف وفيه أيضا عطية العوفي: ذكره الذهبي الضعفاء والمتروكين ومعنى الحديث صحيح

ضد الشاكر هو الجاحد للنعمة، الكافر بها.

أول صفة في هذا الجاحد أنه لا يشعر بالنعمة، فالجاحد ليس في قلبه قبول أنَّ لأحد فضلًا عليه، ولذلك ورد في الحديث ((مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ، لاَ يَشْكُرُ اللَّهَ، وَمَنْ لاَ يَشْكُرُ الْقَلِيلَ، لاَ يَشْكُرُ الْكَثِيرَ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ وَتَرْكُهَا كُفْرٌ))[1] ما علَّة هذا؟ لماذا لا يشكر القليل ولا الكثير ولا الناس ولا الله؟

لأنه لا يشعر أن هناك نِعَم، ومِن ثمَّ لا يشعر أن أحدًا له منَّة عليه، حتى الله لا يشعر أن له منَّة عليه! وهذا يغيب عنه اسم (**الحميد**)، فلا يرى في أفعال الله-عزَّ وجلَّ-ما يوجب الحمد، هذا طيلة الوقت ساخط لا يرضيه شيء.

أقسام الناس:

1. شاكر.
2. وجاحد.

الجاحد قطع على نفسه الطريق، يجحد النعم ولا يشعر أن عنده نعم.

أما الثاني فيشعر بالنعم، فبعد أن يشعر بها هناك قسمان:

- قوم ينسبون النعم لغير الله.
- وقوم ينسبون النعم لله.

نبدأ من عند النسبة: القوم الذين يشعرون بنعمة الأمن والأمان والعافية، من أين لكم العافية؟ يكتب لك قائمة بالأعمال التي يقوم بها: (أنام الساعة كذا وأكل كذا وألعب الرياضة)، فيعطيك قائمة على أنه هو الذي يحافظ على صحته! هل هذا يعني ألَّا نعمل هذه الأعمال؟ اعمل ما أردت لكن كلها أسباب قد تنفعك وقد لا تنفعك، هل كل مَن قام بها نفعته؟! كم موسوس في الصحة هو أكثر شخص يبتلى بأمراض، وكم من محافظ على صحته يموت في عمر مبكر عن أمثاله، وهذا مكرَّر، معناه أن هذه الوسائل وإن أُخذت فإنما هي أسباب، والأسباب تنفع أو لا تنفع بأمر الله، فراجع نفسك.

كثير من النعم التي تعيش وترتع فيها في قلبك مانع عن شكرها لأنك تنسبها إلى نفسك أو تنسبها لغير الله على وجه العموم، فانظر إلى إقبال قلب زوج إلى زوجته، طيلة الوقت تقول لك: (أنا أعمل له وأعمل له وكذا وكذا من الصفات) ثم تتحداكِ أنه لا يجد مثلها! بكل ثقة على أنها هي سبب بقاء قلبه إليها، وانظر إلى هذه عندما يربّيها الله، وكيف أنها تحتقر أي أحد آخر، فتقول لكِ: تلك الأخرى التي التفت قلبه لها أو تزوجها ليس فيها ولا فيها ولا فيها، وتقول: من المؤكد أنها سحرته وإلَّا فلا يمكن أن يتركني! وهي لا سحرته ولا غيره لكن هذه أتت تربية لأن نعمة إقبال قلب الزوج إليك لست أنتِ التي تملكيها، ولا مِرآتك ولا عنايتك وإن كانت هذه كلها أسباب لكن والله أسباب قد تقع في قلب الزوج وقد لا تقع، وكم من المرَّات لا تقع لأن الله هو الذي يشرح الصدور.

---

(1) رواه البزار في مسنده وقال: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد، ولم أسمع أحدا سمى أبا عبد الرحمن الذي روى هذا الحديث عن الشعبي.

تحكي أخت من العراق عن بداية استقامتها بصورة عجيبة، وهي تتعلَّم قليلًا قليلًا، ووصل إلى علمها حكم نمص الحواجب وكانت لا تعلم، فقررت أن تتبع سنَّة النبي-صلى الله عليه وسلم-ولا تفعل، فتصوَّر أنها تتغيَّر على الزوج فجأة، وهم يرون عمل الحواجب شيء مهم جدًا، جعلوه الحياة وسعادة الزوج! ومرة واحدة تغيَّرت هي عليه فهو أخذ المسألة كأنها عناد، فيقول لها: تفعلين أي تفعلين، فتقول-والعهدة على القائل لكن أروي القصة كما تكلَّمت-: أنها بكت بين يدي الله وطلبت منه أن يفرج لها هذا الأمر وأن يجعل لها من هذا الضيق مخرجًا، وهذا في الليل، وأصبحت في الصباح فقال لها: ستذهبين. وطأطأت رأسها وخرجت وتركته، أتى من العمل وهي لم تذهب، نظر في وجهها فبدأ يثني عليها ويقول لها: أرأيت كيف عندما عملت أصبحت كذا وكذا!

فانظر كيف مالك الأبصار يقلِّب الأبصار، وهي تحكي أنه بعد زمن عندما زاد إيمانًا أخبرته بأنها لم تفعل وهو تيقَّن بنفسه، لكن الشاهد في القصة كيف قلَّب الله بصره!

هذه النعم لابد أن تعرف إلى مَن تُنسب، قلب الزوج ملك لله وليس ملك المرآة والأعمال التي يتصورونها! وإن كنَّا نقول: اعملي قربة إلى الله، لكن لا تظني أن هذا العمل هو الذي يأتي بالقلب، فكم من قلوب أغلقت عن الشرح لأن الداخل عليها كان واثقًا من نفسه، دخلت على زوجها وهي واثقة من نفسها فكان الجزاء من جنس العمل، والأمر بيد الله.

هل من الممكن أن يشعر الشخص بالنعمة ثم ينسبها لغير الله؟!

الجواب: نعم، الناجحون يشعرون أن النجاح نعمة عظيمة عليهم وبسببه تفوَّقوا، يشعرون أن معهم نعمة وليس مثل الجاحد.

أضرب مثالًا بامرأة لا تنجب ثم أنجبت عن طريق طفل الأنابيب، هي تشعر أن الطفل نعمة وأنه يشرح صدرها، لكن طيلة الوقت تكلِّمك عن الطب الحديث وكيف تطوَّر، وتقول لكِ: لا مشكلة تواجه الطب الحديث! إلى درجة أن إحدى الطبيبات تحكي لي أن امرأة في آخر حياتها في سكرات الموت، وأهلها قبل أسبوع شعروا أنها اضطربت جدًا فطلبوا من الطبيبة أن تحقنها بمادة مهدئة لتهدأ ولا تكون في حال خارجة عن السيطرة، فحقنتها، ففي آخر الأسبوع الثاني رأوا سكونها الزائد، فقالوا للطبيبة: احقنيها بحقنة تستطيع أن تتحرَّك فيها. فقالت: ماذا تعتقدون؟ أن الأمر بيدي؟! لكن الناس في الموقف تختلط عليهم الأوراق، تظهر عقائدهم في المواقف، مَن الذي بيده الأمر؟!

المقصد أن هناك أناس يشعرون بالنعمة لكنهم ينسبونها لغير الله، وهذا شعور لا يفيدني، مادام نسبها لغير الله فانقطع بيني وبينه الطريق لكنه يشعر بالنعمة، تقول له: هل أولادك نعمة؟ فيجيب: نعم، إذًا كن لله شاكرًا، تجده يشكر الأسباب، وبذلك يكون عنده شركاء متشاكسون.

فالناس مستوون في الشكر:

1-شاكرون:

ينسبون النعمة إلى الله وهؤلاء الموحدون الذين نسأل الله أن نكون منهم، هؤلاء يشعرون بالنعمة وأن ليس لأحد فضل إلا الله وأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوني بهذه النعمة لن ينفعوني بها إلَّا إذا شاء الله إجراءها على أيديهم.

2-قليلو الشكر:

يشعر أن الله هو المُنعم، ويعلم أن لا مُنعِم غيره وأن النعمة جاءت على يدك لأن الله أجراها على يدك وإذا ما كانت هنا ستكون هنا، أنا على يقين أن الله لو أراد أن يعطيني سيعطيني على يد مَن كان، وأغمض عيني عن اليد وأفكِّر فيمن سخَّرها، لكن تجده بعد أن يمسك النعمة، لحظة التقائه بالنعمة يغيب عقله، يستلذ بالنعمة وينسى الشكر، وهذا حال كثير من الموحدين، يصل النعمة ويباشرها ثم يشتغل بها عن شكر الله.

كم من فتاة تدعو ليلًا ونهارا أن يزوّجها الله ثم ربنا يوفِّقها ويأتيها الزوج الصالح، إلى هنا هي تعلم أنه لم يسخِّر لها الزوج الصالح إلَّا الله، لكن عندما باشرت النعمة قَلّ شكرها!

انظر للنبي-صلى الله عليه وسلم-لمَّا فتح مكة، كان ذليلًا منكسرًا-صلى الله عليه وسلم-يعرف أنه لم يفتح له مكة إلَّا الله، ثم عندما دخل كيف صلَّى في ذاك الضحى، حتى أن بعض أهل العلم قال: هذه صلاة الفتح، وآخرون قالوا هذه صلاة الضحى.

لكننا نكاد نكون كلنا حين تباشرنا النعمة ننشغل عن الشكر. مثلًا ابنتي حامل وولدت، وكنَّا في هَمّ وهذا يقول لك عملية، والحمد لله أخرجها الله بالسلامة، ثم تركنا ذلك وأمسكنا الأم ونرضع في هذا ونُؤَكِّل هذا، ونسينا أن نبقى شاكرين ذاكرين حامدين، المفروض كلَّما أنعم عليك نعمة تُحْدِث عبادة لهذه النعمة، وكلَّما استمرت النعمة أبقى مع العبادة التي أحدثتها، وكرر: ((اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ))[1].

وغالب الذي يتعلَّم بُثَّ في قلبه التوحيد، أصبح واضحًا أنك وحدك الذي أنعمت علي، لا طبيب ولا صاحب مال، إلى هنا جيد، أنك حافظت على قلبك ألَّا يلتفت لغير الله، لكن المشكلة لمَّا باشرت النعمة نسيت المُنعِم، ونسيت الشكر.

ما الذي يجعلنا وقتما نباشر النعمة ننشغل بها؟

قوة حب الدنيا والشغف بها، كلَّما ضعف حب الدنيا في القلب شعرت أن هذا طريق أنت سائر فيه، وهذه الآمال ليست منتهى آمالك، إنَّما منتهى آمالي أن تُفرَّج عنِّي كُرب الآخرة، أن يقال لي: (ربٌّ راض غير غضبان)، أن يقال لي: (ادخلوا الجنة بسلام)، أن أُنادى مع مَن يُنادى في جنات النعيم، عندما تكون هذه الآمال دائرة في عقلك ويمرُّ عليك شيء من عطايا الدنيا تغتنمها لذاك اليوم، أما إذا كانت هذه النعم فقط هي التي في شاشتك، لا ترى غيرها، تشتغل بها.

المطلوب: أن تعود لأول الكلام وتخفِّض سقف عنايتك بالدنيا، وترفع سقف عنايتك بالآخرة، كلَّما كان عندك ذكرى الدار، أصبحت العطايا في الدنيا سبب لورود الآخرة.

لو توسَّلت وجاءت النعمة وشكرت ونسبتها إلى الله، ماذا أفعل بعد ذلك؟ هل أذكِّر نفسي طول الوقت أن النعمة من الله؟

(1) رواه أبو داود والنسائي وصححه الألباني.

الجواب: تُحْدِث عبادة لهذه النعمة، أما سجود الشكر فيكون وقت النعمة، لكن تُحدِث عبادة كالصدقة.

مثلا: كنت تقوم الليل بتسليمتين وتوتر، اجعلها ثلاثًا، أحدث عبادة تكون مشروعة بالطبع.

لابد أن تتصوَّروا قضية مهمة وهي: أن كل هذه النعم مجرَّد ذوق لنعم الآخرة، فكأنه يقال: اغتنم نِعَم الدنيا التي تذوقها من أجل أن ترقى في الآخرة، فهذه وسيلتك، ومن ثم سيكون الشكر ديدنك طيلة الوقت، ومن ثم تهرع إلى الصلاة شاكرًا، وليست ثقيلة عليك! وهكذا ينصرف عنك وصف المنافقين، وتنحاز للمؤمنين؛ لأن المؤمن عنده تركيبة تفكيرية تقول: (أنا عبد ورزقت نعمة الإسلام والبدن والأمن والأمان، الشكر على هذا كله أن أقف بين يدي الملك وأنا محب للقائه أشعر أن لقاؤه نعمة)، فانظر كيف أنت في دائرة النعمة لا تنفك عنها.

نسأله-سبحانه وتعالى-أن يجعلنا من الشاكرين الذاكرين المُثنين عليه بما يستحق-سبحانه وتعالى-، لا نحصي ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه-سبحانه وتعالى-.

يتبع اللقاء الثالث...

اللقاء الثالث

عناصر الدرس:

- مراجعة لما سبق.
- من الأسماء الحسنى التي يجب أن تكون معنا دائمًا حتى نلهج بالشكر.
- سوء الظن بالله.
- أسباب نسيان النعم وأسباب تغذيتها.
- صفات الملك العظيم من آية الحشر.
- كيف يدفع الإنسان نفسه لحسن الظن؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لا زلنا بفضل الله ومنَّته نجتمع ونرجو أن يكون اجتماعنا من أجله–سبحانه وتعالى–وأن نكون ممَّن تحيط بهم الملائكة ويذكرهم الله–عزَّ وجلَّ–فيمن عنده.

ابتدأنا العودة بموضوع الشكر وهذا الموضوع لا يُملُّ من تكراره لأن الدين نصفان: نصفه شكر ونصفه صبر، ومَن مارس الحياة وفهم حقيقتها يجد هذه المسألة واضحة، فما في الحياة إمَّا أن تعامله بالشكر فيزيد وإمَّا تعامله بالصبر فيزول ويثبت لك الأجر.

ذكرنا سابقًا:

- **أين مكان الشكر؟** في قلبك.
- **وماذا يحتاج الشكر من قلبك؟** الإحساس بالنعمة؛ لأنه عندما يموت الإحساس بالنعمة كثيرًا ما تتحوَّل النعم عند الناس إلى نقم، وإذا مات الإحساس بالنِّعم تمرُّ النعم على الإنسان وتتكرَّر وهو لا يشعر بوجودها إلَّا عندما تُفقد ويكون فات الأوان.

فحتى أحقِّق حقيقة الشكر لابد أجد أولًا قلب يشعر بالنعمة، ثم إذا شعر القلب بالنعمة أحتاج إلى أمر آخر وهو نسبة النعمة إلى الله، فقد أحس بالنعمة وأشعر أنها نعمة، لكن لا أنسبها إلى الله، فأقع في ثاني أمر يقطعني عن شكر النعمة؛ لأن الانسان عندما ينسب النعمة إلى ذكائه وجماله وعلمه وقوته وبيئته، هذه النسبة تقطع عليه شكر الله، فتصوَّر نحن ماذا نردِّد في أذكار الصباح والمساء، من المفروض أن تكون هذه مشاعرنا: ((اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ أَوْ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ))[1]، حرف (ما) عندما نرى تفسيره في اللغة نرى أنه عام في صغير النعم وعظيمها، كأنك تقول: (كل نعمة أنا فيها أو فيها أحد من الخلق، من أين لنا بها؟) (فَمِنْكَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ) كأنك تقطع عن القلب عروق التعلُّق بغير الله أو شكر غير الله، أي أنه لا توجد نعمة صغيرة كانت أو عظيمة إلَّا وهي من الله تعالى، وهذا الأمر وإن كان مَرَّ علينا لكن سنقف مرَّة أخرى عليه:

حتى أكون شاكرًا يجب أن يكون عندي حساسية تجاه النِّعم، أي أنني أحس بالنعم صغيرها وعظيمها، فلمَّا تجد نفسك تستطيع أن تحمل كأسًا فتشعر بأن الله–عزَّ وجلَّ–قد أنعم عليك بهذه الأصابع الخمس، وتعرف أن أقوامًا قد يُخلَقوا لا يملكونها ولا يملكون واحدا منها فقط، وعدم امتلاك واحدًا منها يساوي مجموعة من الإعاقات في القدرة على التعامل مع الأشياء الدقيقة التي تتعامل أنت معها بسهولة وتلقائية، أي أنني أستطيع أن أحمل وأضع بتلقائية، هذه التلقائية أورثتنا برود في الشعور بالنعم!

(1) صحيح ابن حبان، قال شعيب الأرناؤوط: حديث حسن.

ولهذا جعل الله–عزَّ وجلَّ–الناس بعضهم لبعض أمثالًا، بعضهم لبعض صورًا، ترى الناقص عندك كاملًا عند غيرك، والكامل عندك ناقص عند غيرك، وهذا التفاوت حتى يشعر كل أحد بما معه من النعمة، الذي عنده نقص يصبر، وأنت الذي معك النعمة لمَّا ترى الناقص تشكر، وبالتبادل، وهكذا نكون حقَّقنا النصفين كلاهما في الدين: صبر وشكر، لكنك تعلم أن غالبنا لا ينظر إلى من حوله إلَّا لمن كَمُل عنه، فنحن لا ننظر لمن حولنا إلَّا لمن هم أعلى منَّا في أشياء معيَّنة، لكن الذين هم أدنى منَّا وعندهم نقص نمرُّ عليهم سريعًا وحتى لا تتعذَّب نفوسنا وضمائرنا نحاول أن ننساهم!

فمثلًا: لو أخذت جماعة إلى مستشفى فيه أمراض مزمنة، أو الأمراض التي يصاب بها الأطفال حديثًا من التوحُّد وفرط الحركة، ورأيت أنهم لا يتعاملون مع الأشياء بصورة طبيعية لا من جهة صوتهم ولا سمعهم ولا كلامهم ولا تعاملهم، وهؤلاء لابد من إدراكهم حتى لا يتصرَّفوا تصرُّفًا خاطئًا؛ لأنهم لا يعرفون الأخطار، تجده كبيرًا وقد يبقى على طرف مكان يُلقي بنفسه، وهذا كله عندك بسهولة، تستطيع أن تدرك أن هذا خطرًا ويجب أن تبتعد عنه، وتتكلَّم بهدوء، إلى آخر هذه الفوارق. فالليلة التي تذهب فيها لهذا المكان، عندما تعود إلى البيت تشعر بتنغيص، لكنك تبذل جهودك من أجل أن تنسى، وتقول: (يجب أن أخرج إلى مكان لأغير وضعي، نفسيتي تعبت) فنبذل الجهد لننسى بدلًا من أن نبذل جهودنا لنكون لاهجين بالشكر، وهؤلاء الله أعلم بمكانتهم عنده، وهؤلاء عبرة لك.

فكل الناس في اختلاطهم مع بعض لابد أن يروا شيئا في غيرهم يحمدون الله على أنه كَمُل في نفسهم، ويجدون شيئًا عند غيرهم يصبروا على أنه لم يوجد عندهم، وهذان النصفان تجدهما في الاحتكاك بالمجتمع والنظر له.

حتى تكون شاكرًا لابد أن تعلم أن الشكر عبادة بالقلب، واللسان ناتج؛ لأننا الحمد لله بفضل الله حين يسألك أحد: كيف حالك؟ تقول: الحمد لله. هذا جميل، لكن كما يقال باللسان لابد أن يكون لها استقرار في الجنان، ولأنه لا استقرار في الجنان أقول الآن: الحمد لله. وبعدها أقدِّم معروض من الشكاوى على الحال وعدم الرضا به وأتكلَّم بكلمات فيها كفران بالنعمة التي تجري علي! فلابد أن يكون قلبي حسّاس للنعم، وكلَّما زادت الحساسية انطلق الشكر من القلب كما ينبغي، والحساسية وحدها لا تكفي، أحتاج معها أن أنسب هذه النعمة لله وحده لا شريك له، لابد **(وحده لا شريك له)**.

لأني عندما أعود إلى الوراء سأجد أنه (الأول) الذي ليس قبله شيء، فكل ما عندك من نعم سبَّبها الله لك، وكل الأسباب التي سبَّبت وجود النعمة إنَّما صاحبها هو الله–عزَّ وجلَّ–، ولذلك سنقف عند اسم **الأول والآخر** لنزيد هذه القاعدة في القلب قوَّة.

إذًا القلب فيه ثلاثة أمور:

1. شدَّة حساسية تجاه النعم.
2. قوة نسبة النعمة إلى الله–عزَّ وجلَّ–.

3. أن تعرف أن هذه النعمة التي أنعم الله بها عليك وحده لا شريك له تُحْدِث منك طاعة وعبادة {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}[1]، **فما تحديثك بالنعم؟**

أحْدِث عبادة في بدنك أو في لسانك شاكرًا لله ما أنعم به، وأثنِ على الله في حديثك مع أي أحد، طوال الوقت تقول: (أنعم الله علينا، رزقنا الله، لطف بنا الله)، وفي الصبر: (ابتلانا الله، اختبرنا الله، ربَّانا الله)، لازلت في كل الحالتين تتكلَّم عن الله، وهذا لا يأتي إلَّا من قلب موحِّد، لا يأتي إلَّا من قلب ليس عنده إلَّا واحد فقط.

أترون الطواف حول الكعبة؟ المفروض أنك تطوف حول رضا الله وحده، بدنك يطوف في الأرض، وقلبك يعلن أنه لا يطوف إلَّا حول رضا واحد، ثم أنك تسعى ذهابًا وإيابًا وتفكيرك كله حول (إليك نسعى ونحفد)، فالذي يكون تفكيره دائرًا حول واحد وليس أي واحد ماذا سيحصل في سمعه وبصره وتصرُّفاته؟ طيلة الوقت تفكيره أن ينتفع بهذا كله في رضا هذا الواحد، فتراه ذاكرًا له، شاكرًا له، مثنيًا عليه، رابطًا تفاصيل حياته به-سبحانه وتعالى-، وانظر إلى الخلق عندما يتعلَّقون بمحبوب أو يرون مُنعِمًا عليهم ماذا يحصل؟ طيلة الوقت يتكلَّمون عنه، وانظر لهذه التي عندها طفل وحيد وتحبُّه، طيلة الوقت عندما تكلِّمها تحكي لك قصصًا لها قيمة وليس لها قيمة، كلها عن هذا الواحد المحبوب، فهذا شيء طبيعي: أن الإنسان عندما يكون له واحد يحبُّه، يُثني عليه ويتكلَّم عنه دائمًا، لكن إذا هذا الواحد ليس موجودًا في القلب كما ينبغي، ترى هذا الإنسان فيه شركاء متشاكسون، تراه مشتتًا.

تمرُّ علينا أحداث وفي أوَّلها قد أشعر أنها ليست نعمة، إنَّما ابتلاء واختبار، ثم تتكشَّف الأيام ويظهر أنها نعمة عظيمة، فأكون عشت فترة طويلة من الحدث وأنا مسيء الظن بربي! يقول أحدهم: (أنا ليس لي حظ، كلَّما فعلت كذا وكذا يُغلق عليَّ، كلَّما عقدت علاقة مع زميلة أو جارة يحصل كذا وكذا أو هذه الزميلة تخرج من الكليَّة، إلى آخرها من أحداث)، ثم بعدما تقدَّم بها العمر وتزوَّجت تقول: (الحمد لله أنني لم أكوِّن علاقة مع أحد، كنت سأتعلَّق بهذا الأحد ويرهنني، وأنا أنظر لحالي الآن مع أولادي وبيتي وكيف أنا رهينة لهم).

وكم من أحداث مَرَّ بها الإنسان وكان يدعو: (يا رب يحصل كذا وكذا) وعندما نضج قال: (الحمد لله أن ربي ما استجاب لي، فلو كنت سرت في ذاك الطريق لما عدت!)، وكم من أمور دخل فيها الانسان وتمنَّى أن يكون في هذا النوع نجمًا بارزًا ثم عندما هداه الله حمد الله أنه لم يُكمل الطريق.

لكن السؤال: وقتما حدثت تلك الأحداث ماذا كان في القلب للرب؟ **سوء ظن به.**

ولننظر لهذه الجريمة العظيمة التي تقابل الشكر: إمَّا شاكرًا، وإمَّا كفورًا، هذا الكفور مِن أين يأتي؟ ماذا في قلبه عن ربه جعله كفورًا؟ سوء الظن به-سبحانه وتعالى-، في قلبه أشياء كثيرة لكن سوء الظن اسم عام.

ماذا يجب أن يكون في قلبي من أسماء وصفات حتى أكون شاكرًا؟

---

(1) [سورة الضحى: 11]

أبدأ بسوء الظن وهو الذي يجرُّني للحديث عن الأسماء والصفات.

انتقلنا إلى سوء الظن لأن الإنسان إمَّا شاكرًا أو كافرًا.

- الشاكر في قلبه إحساس شديد بالنعمة، ونسبة لله، وإحداث عبادة، وحديث عن الله–عزَّ وجلَّ–والثناء عليه.
- والكافر (كفر النعمة) لا يشعر بالنعم، وإذا أتته النعمة ينسبها لغير الله، وكلَّما أتته نعمة دائمًا عنده (لكن) هذا الملبس جميل (لكن) هذا البيت جميل، فلا يرى إلَّا الجانب السيِّء ولا يرى من الكأس إلَّا الفارغ.

↲ ماذا يظن هذا بربِّه؟ ولماذا وصل إلى هذا الحال؟

لنتَّفق على هذا الذنب العظيم الذي قد يُمارس في اليوم والليلة مرَّات ومرَّات ونحن لا نشعر وهو سوء الظن بالله تعالى.

يقول الله–عزَّ وجلَّ–عن سوء الظن–وسوء الظن درجات–عندما وصف أعلى الناس في سوء الظن قال لهم في يوم القيامة: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ **بِرَبِّكُمْ** أَرْدَاكُمْ}[1] أرداكم: أي جعلكم تتردُّون، أهلككم.

انظر للاسم الذي ورد في هذه الآية (**الرب**) لماذا؟ لأن هذا الاسم هو الذي يسبِّب حسن الظن بالله–عزَّ وجلَّ، فكلَّما تنظر إلى الأمور، تنظر على أن الذي دبَّرها هو الرب، الذي يحوِّل عباده من حال النقص إلى حال التمام.

- الرب: أي المُربِّي، المُصلح، الذي يحوِّل حال الإنسان من النقص إلى التمام.

فكيف يُجري عليك الرب أقدارًا ليحوِّلك من النقص إلى التمام وأنت تنظر لأقداره على أنها من التمام إلى النقص؟!

↲ كيف يُربِّي الرب خلقه؟

بما يُجريه عليهم من تدابير.

فالمفروض أن كل تدبير يجري عليك تنظر إليه على أنه من رب يريد نقلي من النقص إلى الكمال، هذا الذي يجب أن يستقر في قلبك.

سوء الظن معناه: أنني أنظر إلى الحدث الذي في حقيقته يريد الرب أن ينقلني فيه من النقص إلى التمام وأظن فيه بالعكس، وأظن أنه يريد أن ينقلني من التمام إلى النقص!

تخيَّل مشاعرك وأنت في الأعلى وأحد يريد أن يجرَّك للأسفل وأنت تريد العلو، فتخيَّل كيف ستقاوم، في نظرك أنه يريد أن يشدَّك للأسفل، فهذا نظرك لأقدار الله وهو في الحقيقة يريد أن يعليك، فتخيَّل عندما تأتيك الأقدار التي ترفعك فتقاومها وتدفعها فكأنك تدفع الترقي، وتدفع العلو، والعلو والترقي لا تفكِّر في سقفه الدنيوي لأن مشكلتنا أن سقف أماني الدنيا عالي، وسقف أماني الآخرة منخفض، فنحن نسير في طريقنا ونصطدم بأي شيء، بالباب مثلًا، ثم تأتينا آلام، ماذا نفعل في الباب في الغالب؟ نسبُّه، هذا أقل شيء، غير التصرُّفات الأكثر سفاهة من ذلك. هذا الباب مثل الشوكة التي لو شاكتك رفعك الله بها منزلة، وقوة

(1) [سورة فصلت: 23]

الباب أكثر، فتصوَّر عندما تصطدم به من أجل أن تعود على نفسك فتشعر بمنَّة الله عليك وتقول: الحمد لله. فيكون هذا سبب لرفعة منزلتك عند الله، منزلة أرادها الله لك.

فعندما تتعامل مع شيء وأنت مُحسن الظن بالله يختلف عمَّا لو تعاملت مع شيء وأنت مسيء الظن بالله، يقول أحدهم: (اليوم من أوَّله خربان!) مع أنها كفارات للذنوب ورفع للمنزلة، فكم مررنا بكرب وضيق ودعونا وسألنا وانكسرنا، ثم كان هذا درسًا عظيمًا لك: من جهة كفارة للذنوب، ومن جهة أخرى ألَّا تسمع في الحديث كلمة (كُرب الآخرة)؟ الدنيا مزرعة الآخرة، عندما تشعر بالكربة هنا لابد أن تتصوَّر كربة الآخرة، ولا مقارنة بين كُرب الآخرة وكُرب الدنيا.

أرأيت عندما يمرُّ علينا أسبوع أو أسبوعان ونحن في ضيق شديد، وأمْرُنا في يد فلان وفلان، ونجري بالأوراق إلى فلان، وفي النهاية أنت هنا لك ملجأ، لكن لو خسرت ملجأك وجاءتك كُرب الآخرة وأنت لا تشعر بمعنى الكُربة فأين دعاؤك؟ أين سؤالك أن يفرّج الله عليك الكُربة؟ أين إنفاقك مثلًا وأنت تفكِّر أبِيّ أنفق لأفرّج على نفسي كُربة من كُرب يوم القيامة؟

الكُرب يوم القيامة ليست على البال لأنني ما انتفعت بتربية الرب في الدنيا، كم من كُربة يُشكر-سبحانه وتعالى-أن أدخلني فيها! الحمد لله أني لم أمت قبل أن أعرف أن قلبي هذا يجب أن يكون لله، ومرَّرني بمواقف قُطِّعت علائق غيره في قلبي، ومرَّت عليَّ أحداث جعلتني لا أطلب إلَّا إياه، هذا التوحيد هو المطلب.

وأحيانًا مع اللهو تنشغل فيردَّك له لأنه لا ينفعك إلَّا إياه، فلمَّا تلهو وتنشغل عنه لا يتركك حتى تتكاثر ويأتيك القبر {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ(1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ}[1] بل يردُّك، حتى ينفعك هذا الرد في قبرك ويوم تلقاه.

- فمن أين يأتي سوء الظن؟ عندما لا نعرف الرب.
- فما سوء الظن وماذا ينقصنا من معرفة الرب؟ وهذا عنوان جديد تحت الشكر وهو (سوء الظن).
- ما علاقة سوء الظن بموضوع الشكر؟ نحن نأتي بضد الشكر، ما سبب كفران النعم؟ سوء الظن بربِّنا، كم من نعمة جرت علينا ما رأيناها نعمة، مَن سبَّب لنا هذا؟ المجتمع حولنا، تفكيرنا الناقص، وأسباب سأذكرها سريعًا ثم أتكلَّم عن سوء الظن.

⇐ **ثلاثة أمور:**

1-النظر للنعمة على أنها نقمة سبَّب سوء الظن.

2-الاعتياد على النعمة سبَّب سوء الظن.

3-الانشغال بالدنيا سبَّب سوء الظن.

هذه كلها أوصلتني لنسيان النعم، فإمَّا أنظر للنعمة على أنها نقمة، أو أعتادها، فأشعر أنه من الطبيعي أن يكون لي بيت، فمَن الذي ليس عنده بيت؟! الاعتياد على النعمة مشكلة عظيمة نمارسها ليلًا ونهارًا، ثم الانشغال بالدنيا، والانشغال بالدنيا يسبِّب

(1) [سورة التكاثر: 1-2]

لك أن تأتي النِّعم وأنت سقفك عالٍ لا يعجبك هذا بل تريد أكثر، وكلَّما أتاك تطمع أكثر، فالانشغال بالدنيا يجعلك كلَّما أتتك نعمة لا تشعر بها، فكل هذه التركيبة ستوصلني إلى سوء الظن.

مثال: كثير من الأمهات اللاتي رزقهن الله أطفال، ينظرن إلى هؤلاء الأطفال النعمة العظيمة على أنها شيء من البلاء، أو من النقمة، وهذه النعمة لابد من المشاق فيها وكل النعم لأن الدنيا بُلْغة منغصة، وانظر لها عندما يكون عندها 3 أو 4 أبناء ثم تعلم أنها حامل، ماذا يفعلون بها وماذا تفعل هي بنفسها؟! هناك كثيرون ممَّن نذروا أنفسهم ألَّا يخرجوا من بيوتهم وقد حملوا لأنهم يُشعرونها أنها في مصيبة! فهؤلاء فقط يحتاجون إلى زيارة واحدة لمراكز الإخصاب ليروا كيف يدفع الناس الآلاف المؤلَّفة ولا ينجحون، ويذهب إلى مكة، وكل هذا من أجل أن يقول: يا رب، ارزقني. ويوصي الناس بالدعاء له بالذريَّة، وهي تتمتَّع بالذريَّة بأيسر ما يكون، ولا شعور! بل شعور عكسي شعور أنها نقمة، ويؤسفنا أن هذا ينتشر في مجتمع يُسمع فيه حديث النبي–صلى الله عليه وسلم–: ((تناكحوا تكثروا، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة))[1] فالنبي يباهي بهذه العائلة كثيرة الأبناء ونحن نستحي من أبنائنا! كل هذا بسبب ماذا؟ لا تعظيم لله ولا للرسول، مسألة يجر بعضها بعض، فامرأة لها زوج–مع كل عيوبه لكنه زوج–، تقول: (أنا كنت في بيت أهلي مرتاحة)، وهذا كله من كفران النعم، وكلَّما يزيد الشخص هذه الكلمة يزيد البلاء؛ لأنه {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}، ماذا لو كفرتم؟ {وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}[2].

الذي يجري عليك من مصائب ذوق لعدم شكرك للنعمة، والاعتياد على النعمة، والانشغال بالدنيا، هذا كله من أسباب نسيان النعم.

- **لماذا ينظر الناس إلى النعمة على أنها نقمة؟**

لأن هواهم هو سبب الرضا.

- **متى يشعرون أنها نعمة؟**

عندما تكون موافقة لهواهم، لكن عندما لا تأتي موافقة لهواهم فليست بنعمة!

مثلا تقول: أنا أريد زوجًا هذا تفكيره، ويحب أصاحبه، فتزوَّجت وحَبَسَها. فتنسى كل النعم التي في الزواج والاستقرار والأبناء ويبقى العيب الوحيد أنه لا يتركني أذهب إلى زميلاتي، فكانت سترضى وتعتبره نعمة عندما يوافق هواها فقط.

الإشكال أننا حوَّلنا كثير من النعم إلى نقم لأنها ما جاءت بالتفصيل على هوانا، ألا تعلم أن هواك سَيُرديك؟! فالحكيم الخبير أعطاك نعمة على ما يناسبك.

(1) مصنف عبد الرزاق، وضعَّفه الألباني.
(2) [سورة إبراهيم: 7]

مما يغذي أسباب نسيان النعم:

1) **طبائعنا**، هناك طباع كفرية (من الإنكار وعدم الرضا) وهذا يحدث في أولادنا، مثلًا ولدك ذهب إلى رحلة مع المدرسة، فتسأله أمه عندما يعود: كيف كانت الرحلة؟ يقول: (شمس، وتعبت في الطريق، وطلبت ماء ولم يعطوني...) تسأله: ألم تلعب طوال الرحلة؟ يقول: بلى، تسأله: هل قدّموا لكم الإفطار؟ يقول: نعم. تسأله: هل سعدت مع أصدقائك؟ يقول: نعم. لماذا إذًا لم تذكر هذا كله؟! فهذه النفسية تحتاج إلى معالجة.

قد يوجد طفل عمره 7 سنوات وهو في بيت الكرماء، وهو وحده بخيل، فمن أين أتى بهذه الصفة ولا أب ولا أم ولا عائلة بهذا الوصف! من طباعه.

وقد ورد في حديث وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ قَالَ: "لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَجَعَلْنَا نَتَبَادَرُ مِنْ رَوَاحِلِنَا فَنُقَبِّلُ يَدَ النَّبِيِّ-صلى الله عليه وسلم- وَرِجْلَهُ-قَالَ-وَانْتَظَرَ الْمُنْذِرُ الأَشَجُّ حَتَّى أَتَى عَيْبَتَهُ فَلَبِسَ ثَوْبَيْهِ ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ-صلى الله عليه وسلم-فَقَالَ لَهُ ((إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ)) قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمِ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: ((بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا)) قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ"[(1)].

الشاهد في سؤال أشج بن عبد قيس وفي تقرير النبي-صلى الله عليه وسلم-له: "يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمِ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟" أي: هل طبعني الله على هاتين الصفتين أم خُلق تخلَّقت به؟ قَالَ: ((بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا)) قَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ" فأشج بن عبد قيس جعل الأخلاق على نوعين:

1. إمَّا جبْل بمعنى طبع.
2. أو تخلُّق بمعنى اكتساب.

لذلك نقول: إن النفسيات الإنسانية تأتي وفيها مساحة للاكتساب، وهذه مساحة الاكتساب تنفذ إلى مساحة الطباع، المفروض الذي تكتسبه من علوم يهذِّب طباعك، والله-عزَّ وجلَّ-وصفنا بأوصاف كثيرة من مثل هذا: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ}[(2)] أي أنَّ الذي صلّى وآمن، اكتسب ما يهذِّب هذه الطباع، معنى ذلك أنَّ لديَّ مساحة للاكتساب، لن أركن إلى الطباع الطبيعية لأن هذه بلوتنا الحقيقية، أن كل منَّا أتى بطبع مطلوب منه أن يهذِّبه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ-صلى الله عليه وسلم-: أَوْصِنِي قَالَ: ((لاَ تَغْضَبْ)) فَرَدَّدَ مِرَارًا قَالَ: ((لاَ تَغْضَبْ))[(3)] يقول الشرَّاح للحديث والله أعلم: أن الرجل كانت تظهر عليه معالم الغضب والثورة، فالنبي-صلى الله عليه وسلم-أوصاه بما يعدِّل ما ابتلي به من طبع، وهذا هو الاختبار: أن تأتي إلى ما ابتليت به فتهذِّبه، فإذا هذَّبته كما يحب الله ويرضى كان الأجر على قدر المشقَّة.

---

(1) رواه أحمد في مسنده، صححه الألباني.

(2) [سورة المعارج : 19-22]

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، 6116

مثال: شخص كريم ينفق 1000 ريال بكل سهولة، قد يكون أجر هذا مثل أجر الآخر الذي بعد جهاد أنفق 10 ريال؛ لأن الأجر على قدر المشقَّة، والله أعلم، أنا أضرب هذا مثلًا لتتصوَّروا ولكن الأجور عند الله لا كلام للخلق فيها.

فالعبد عندما يُبتلى بشيء من طباعه يكون اختباره في طباعه، وكأنه يقول: (من أجل الله سأترك ما ابتليت به) الإنسان خلق عجولًا، وهذا طبع {وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا}[1] فهل تترك نفسك على ما أنت فيه من عجل؟! أم تؤمر بالتؤدة والهدوء وعدم التعجُّل؟ وهناك خَلْق فيهم الهدوء، هؤلاء أنعم الله عليهم بهذه النعمة كما قال أشج بن عبد القيس: "أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمِ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟" فالمجبول على الخير لا يمكن أن تكون كل جبلَّته على الخير، لابد أن فيه نقاط ضعف.

نختم مسألة الطباع بما ورد في الحديث: ((إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاقَكُمْ كَمَا قُسِمَتْ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ))[2]، فهذا سيسبِّب لي الرضا بما قُسِم لي من أخلاق طبعيَّة وأبدأ أعالجها.

فالمفروض أن تفكِّر ما هي نقاط ضعفك، فتقول: (أنا ربي بلاني في نفسي أن لي كذا وكذا من الطباع، مثلا أغضب بسرعة) إذًا أبْعِد نفسك عن مواطن الإثارة، ابتعد عن أشخاص استفزازيين مثيرين، ولا تدخل في جدل معهم، تحاشى أن تحتك بهم احتكاكًا يسبِّب الإثارة، فهؤلاء ليسوا جلساء صالحين لك، يُخرجون منك أسوأ ما فيك، وأنت المفروض تجلس مع ناس على الأقل لا يُخرِجون منك لا سيء ولا حسن. موسى-عليه السلام-طلب من الله-عزَّ وجلَّ-أن يكون له وزيرًا من أهله، لماذا؟ {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا}[3]

يعني أحكي لك موقف وأقول: سبحان الله انظر كيف لطف الله بي، وأنت تقول: سبحان الله انظر كيف رزقني الله من حيث لا أحتسب، والثالث يقول: سبحان الله ربي حليم، أنا فعلت كذا وكذا وهو حلم علي. فنجلس طول الوقت في علائقنا لا نذكر إلَّا ما يزيد تنزيهنا لله، ثم يأتي يوم أقول: أنا مللت من هؤلاء الأبناء! فتقول لي: اذكر الله، أنت مأجور ولا يضيع أجرك عند الله وتربيتك تنفعك. ويأتي يوم العكس، هو يكون هكذا فأذكِّره بالله.

أمَّا لو كان الناس الذين حولك لا يسبِّحون الله ولا يسبِّبون لك التسبيح والذكر فهؤلاء يحتاجون إلى التصبُّر معهم وخاصة إذا كانوا مفروضين علينا، لكن الصحبة الصالحة هي التي تؤدي لهذان الأمران، وهذان الأمران هما نفسهما معنى حسن الظن بالله وسيكون لنا شاهد في ذلك.

عالج نفسك قبل أن يغلبك طبعك، لا يصلح بعد أن تثور وتغضب تقول: (سامحوني فأنا غضوب) حقوق الخلق تتعلَّق بك، أنت الذي تعالج نقطة ضعفك.

---

(1) [سورة الإسراء: 11]

(2) رواه الطبراني ورواته ثقات وليس في أصله رفعه.

(3) [سورة طه: 33-34]

وهذا عيب موجود في أكثرنا أنه لا يعرف على ماذا طُبع، وإذا ما عرفت على ماذا طُبعت ستتكرَّر نفس مأساتك، وتدخل هذا العمل ويقول الناس: (هذا مغرور)، تخرج وتدخل للثاني فيقولون: (مغرور)، حتى عندما تمارس المسائل العادية تكون مثلًا في اجتماع بسيط عائلي، الناس يرونك بهذه الصورة. هل العيب فيهم كلهم أم فيك؟ تقول: (والله لست بمغرور).

الجواب: عندك من الطباع الطبعيَّة التي لا ترجمة لها إلَّا الغرور، فلاحِظ نفسك، انظر لنفسك كيف عندما تتكلَّم، تتعامل، تأخذ قرار. مثلًا هناك مَن يجلس في المجلس طيلة الوقت يقول لك: (أنا وأنا وأنا)، وهو يتكلَّم بشكل عادي، ولا يفكِّر أن هذا سيسبِّب انطباع لدى الآخرين أن هذا شخص يفكر في نفسه.

فطباعنا تسبِّب ألَّا يرى الانسان الشيء إلَّا سيئًا، لا يرى إلَّا النقص في كل شيء، هذا لابد أن يجاهد طبعه، لابد أن يعيد تأهيل نفسه لو كان كَبُر، ولو صغير أعيدي تأهيله وإرشاده للصواب.

ـ سائلة تسأل عن حديث: كل مولود يولد على الفطرة.

الفطرة التي يولد عليها كل الخلق هي الاستعداد للتعاليم الإلهية والعمل المشروع.

كل الناس مع اختلاف طبائعهم لو قلت لهم أن هناك إله واحد يدبِّر الكون وله هذه الصفات يقبلون مباشرة، خاطِب أي أحد بالتوحيد يقبل مباشرة، ولا يشعر في نفسه إلَّا أنه يجد أدلة على أن هناك واحد.

إذن الفطرة هي الاستعداد الموجود في النفس للتعاليم الإلهية، ثم قل له إن هذا الملك العظيم الذي أنت عبد له أمرك أن تفعل وتفعل، هو يشعر بالحاجة أن تكون له علاقة بهذا الملك، يشعر بالفرح لو قلت له ستدخل على هذا الملك ستصلِّي بين يديه ستذكره، فالفطرة مستوية عند الخلق كلهم، أمَّا الطباع فكل واحد منَّا مختلف بطباعه بدليل النصوص: ((إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ))، ثم عندما وصف النبي-صلى الله عليه وسلم-صحابته، قال: ((أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ))[1] إلى آخر ما وصف-صلى الله عليه وسلم-، هذا الذي يسمَّى بالتفاوت والإمكانيات الفرديَّة، المهم أن الفِطَر التي يشترك كل الناس فيها هي الاستعداد للتعاليم الإلهية والعمل المشروع، أمَّا الطباع فمختلفة.

وعلى ذلك ما تفسير النصوص التي تدل على أن الإنسان هلوع جزوع منوع؟ هذه طباع خُلِق بها الإنسان.

الطباع من الأسباب التي تغذِّي هذه الأمور، يكون طبعه فيه كفران وتَرَك نفسه لطبعه، ولكلٍ منَّا نصيب في هذا لأن الإنسان خُلِق هلوعًا، إذا مسَّه الشر جزوعًا، وإذا مسَّه الخير منوعًا، جاء الاستثناء {إِلَّا الْمُصَلِّينَ}، فهذه الطباع تُهذَّب، والصلاة رمز للدين والطاعة والعبادة.

(1) رواه أحمد في مسنده، والترمذي وابن ماجه في سننهما، وقال الألباني صحيح.

أيضًا مما يغذِّي أسباب نسيان النعم:

2) **المجتمع**، المجتمع يحول النعمة إلى نقمة، يُشعِرك أن ليس عندك شيء، ولذلك ((وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ))(1) كم من المرَّات يكون هناك مزاح ليس له داعٍ. تكون ما رأت زميلتها منذ زمن فلمَّا تراها تقول: (أنا لا أراكِ إلَّا حامِلا!) ما مناسبة هذه الكلمة الآن؟! هذا كلام ليس له داع، وهي تقول: (لذلك لا أريد أن أخرج من البيت)، إلى آخر ما تسمع من كلام امتزجت فيه الأمور، لم نعرف ما حدودنا، وعندما لا يعرف الشخص ما حدوده يتعدَّى على حدود الآخرين ويبيِّتهم ليالٍ في حزن وألم.

أيضًا ممَّا يغذِّي أسباب نسيان النعم:

3) **الابتلاءات**، تأتي بعض الابتلاءات للإنسان فيمرُّ بحالة من اليأس، يكون عنده نوع بلاء فيُيَئِّسه البلاء من روح الله ويُنسيه باقي النعم. فالدنيا لابد فيها من نقص، فقد محبوب أو ديْن عظيم، إلى آخر أحداث الحياة، تجعل الإنسان ينسى باقي النعم كلها! يقال له: وأنت في المصيبة والبلاء عليك نعم لابد من شكرها، فلا يجد عنده لسانًا يشكر! ينسى نعم الله-عزَّ وجلَّ-، وكثيرًا ما يخرج من ألسنتنا-وهذا من الفحش العظيم-: (لو ربنا يأخذ كل شيء لا يهم، الأهم أن هذا الأمر يعتدل)! فهذه تركيبة عقلية فاسدة؛ أن كل ما أنعم الله عليك به من نعم لا قيمة له! فقط المفقود تشعر به! ينسى نعم الله، وأنت في البلاء لا يتخبطَّك الشيطان ولا يوصلك لليأس {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ}(2).

لماذا هذان الوصفان (يؤوس كفور)؟ لأن الله بعدما أذاقه الرحمة نزعها منه اختبارًا، ماذا كان ردُّه؟ يئس، أي ما ظنَّ بالله أن يردَّها وأمثالها، فتراه في وقت المشكلة لا يظن أن الله سيفرّج عليه ويعطيه مثلها وأضعافها، فلمَّا ييأس من روح الله يكفر بنعم الله التي مضت فيرى الدنيا سوداء؛ لأنه ينسى ما مضى من النعم وييأس أن يبدله الله-عزَّ وجلَّ-، فأي مستقبل هذا الذي ينظر له؟! يرى أنه لا يوجد حل.

ونحن الآن للأسف نعاني من حالات كثيرة من الاكتئاب سببها أن الإنسان يمرُّ بأزمة صغيرة أو كبيرة فيعامل المُنعِم-سبحانه وتعالى-باليأس أو الكفران، ييأس أن يبدله الله خيرًا من نعمته هذه ويكفر ما مضى من نعم.

فهذا اليأس والكفر من الإنسان إنَّما هو معاملة لله بسوء الظن، ما ظن أن الله-عزَّ وجلَّ-يفرّج عليه وقريبًا. ومن هنا نخرج للكلام حول سوء الظن، لماذا الكفران؟ بسبب سوء الظن، ييأس من رحمة الله فيكفر نعم الله التي مضت، وإذا كفر النعم التي مضت وهو يائس من الله ولا يظن أن الله في مستقبل الأمر يفرّج عليه.

↲ ما سوء الظن؟

---

(1) متَّفق عليه، رواه البخاري كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، 6018، ورواه مسلم في كتاب الإيمان من صحيحه، باب الحث على إكرام الجار والضيف، 47

(2) [سورة هود: 9]

شعور قلبيّ يعتقد صاحبه فيه أنه لا يأتيه من الله خير–هو لا يقول ذلك صراحة فتعبيراته مختلفة–فلا ينتظر إلَّا الشر، فهذا مسيء الظن بربه، وهذا سوء الظن يستحكم في القلب فيكون لا منفذ للقلب إلَّا من سوء الظن، وقد يمر كخاطرة، يعني إمَّا قلوب استحكم فيها سوء الظن أو قلوب يمرُّ بها سوء الظن بالله مجرَّد خاطرة.

– **نبدأ أولًا بوصف أفعال هذا سيء الظن:**

سيّءِ الظن من جهة الجوارح في حالة تردُّد، كلَّما أقدم على مسألة ينتظر الشر قبل الخير، فترى ما في قلبه يؤثر على إقدامه وشجاعته وتصرُّفاته فتراه مهزوزًا، طيلة الوقت يخاف أن يُقدم على أي شيء، ويشعر أن وراء كل شيء شر، بل ويفسِّر كل ما يحدث له على أنه شر، وهذا اسمه في التعامل الشرعي: (متشائم).

كما ذكر ابن القيم أن المتشائم عندما يسمع: (ياسمين). يقول: مادام سمعت هذه الكلمة فلن أجد إلَّا يأس ومين. ومين تعني فراق وموت، فتتحوَّل هذه الكلمة الجميلة وتدل على معنى جميل من سوء ظنه إلى كلمتين تدل على ما في قلبه.

هذا المثل لتتصوَّر كيف أن ما في القلب ينعكس على تفسير الأحداث، وعلى هذا تراه متردِّدًا خائفًا، دائمًا يخرج من لسانه: (أنا ليس لي حظ، والمنحوس منحوس) كل هذا لأن في القلب سوء ظن بالله، ولا تنس أن الاسم العظيم الذي يجب أن يكون في القلب هو اسم **الرب** ليس معروفًا كما ينبغي، هذا على اللسان والجوارح تجده شخصًا متردِّدًا خائفًا، حتى لو ظهر بمظهر الشجاع لكنه من الداخل منتظر للشر.

نرى الآن ماذا ينقص هذا السيِّء الظن من علم؟

هذا المرض يمكن أن يصيب الخلق كلهم، عولجت بأن تردِّد على نفسك كل يوم وبعد كل الفروض وقبلما تنام وفي أذكار الصباح والمساء تقرأ سورة الإخلاص والفلق والناس، وسأقف عند واحدة من هذه الثلاثة سور ونتَّفق ماذا يجب أن يكون في قلوبنا منها، وكيف أننا نردِّدها كل يوم من أجل أن نصل لهذا المعنى فنقطع عن قلوبنا سوء الظن بالله.

نقف عند سورة الناس، سورة الناس فيها ثلاثة أسماء عليها مدار أسماء الله–عزَّ وجلَّ–كلها:

1. {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} الرب.
2. {مَلِكِ النَّاسِ} الملك.
3. {إِلَهِ النَّاسِ}[1] الإله ودائمًا يُشرح مع الله.

كل مرَّة تقول لنفسك: أنا أستعيذ وألجأ لمن أعتقد أنه ربِّي وملِكي وإلهي–بالترتيب–لأنها بالترتيب في الفهم.

الرب: يربِّيك، ينقلك من حال النقص إلى حال التمام، وهذا الرب هو الملك، أي أن الذي يربِّيك هو الملك الذي أنت عبد له.

(1) [سورة الناس: 1-3]

نأتي للصفة التي دائمًا ينقصنًا معايشتها وهي صفة العبودية، كلنا عبيد الله، عبيد للملك، والملك هذا هو يصرِّف شؤونك، فانظر كيف عندما يظن الإنسان بملك الملوك خيرًا، يظن بمالكه خيرًا، ماذا ينتظر منه؟ وانظر كيف عندما يظن بمالكه شرًا، ماذا ينتظر منه؟ الشر. فكأنك كل حين تقول لنفسك: أنا عبد لملك لكن ليس أي ملك!

⇐ **في رحلة سريعة نتعرَّف على الملك وعلى أسمائه كما وصف نفسه في كتابه.**

سأختار موطنًا مشهورًا دائما يُردَّد على الناس وهو موطن سورة الحشر، ماذا يقول الله–عزَّ وجلَّ–في وصف نفسه الملك؟ {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ} لابد أن تعرف أولًا أنه–سبحانه وتعالى–وصف نفسه بأنه الله الملك؛ لأن في الإعراب الملك بدل من الله، أي أن الله هو الملك والملك هو الله، ويأتي بعد الملك {الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ}[(1)] سبع صفات للملك، من أجل ذلك كان الإعراب مفيدًا في الفهم، فنحن نقول: الملك بدل من الله، يعني الله هو الملك والملك هو الله، وما بعدها من أسماء هي صفات للملك، وبهذا الإعراب نفهم المسألة.

فما وصْف الملك الذي أنت عبد له؟ كل اسم من هذه الأسماء له أثر في فهمك لعبوديتك لله–عزَّ وجلَّ–.

1. **قدُّوس**: أي منزَّه عن كل صفات النقص، إذا كان كل صفات النقص هو منزَّه عنها أي منفية عنه فإذًا ليس له إلَّا صفات الكمال، فأنا عبد لملك موصوف بصفات الكمال، منزَّه عن صفات النقص، وأنتم تعلمون أن الأفعال تأتي من الصفات، وأنك من الأفعال تعرف الصفات، بمعنى: كيف عرفت أن جارك كريم؟ خَرَجَت له أفعال كرم فعرفت أنه كريم.

إذًا عندما يكون الموصوف الذي تصفه موصوفًا بصفات الكمال فماذا تنتظر من أحد موصوف بالكمال فقط؟ تنتظر منه أفعال الكمال، فأنت عبد لملك ليس له إلَّا صفات كمال، كل صفات النقص منزَّه عنها، فإذا كنت عبدًا لملك كل صفات النقص منزَّه عنها إذًا سيعاملك بصفاته، وصفاته كلها صفات كمال، إذًا هل تنتظر من ملك منزَّه عن النقص ليس له إلَّا صفات كمال، هل تنتظر منه شرًا؟! كيف؟! ليس له إلَّا صفات الكمال.

2. ثم أن هذا الملك العظيم الرب الكريم موصوف بأنه **سلام**، وهذا الاسم بالذات لا تكتفي بأن يشير عقلك إليه ضمن اسم الملك؛ لأني المفروض عندما أقول: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ} كلَّما قلت: ملك الناس. أتذكَّر صفات الملك، لكن لا تكتفي حتى في اسم السلام أن تتذكَّره ضمن اسم الملك، فهو وحده أُفرد، فأنت بعد الصلاة تقول: ((اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ وَمِنْكَ السَّلاَمُ))[(2)] لتذكِّر نفسك بهذا الأمر العظيم.

↲ **فما معنى السلام؟**

أمَّا معنى السلام فيطول شرحه وهو كما يقول أهل العلم من الأسماء الجامعة، يدخل تحت اسم السلام الحياة كلها، لكن بكلام مختصر: السلام يعني أن الله–عزَّ وجلَّ–صفات كماله سالمة من النقص، وهو–سبحانه وتعالى–مسلِّم لعباده من الشرور والظلم.

---

(1) [سورة الحشر: 22]

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، 591

أمَّا المعنى الأول وهو أنه–سبحانه وتعالى–صفات كماله سالمة من النقص فسنضرب مثلًا على الخلق، القاضي وُصِف بالعدل، ماذا تنتظر منه؟ العدل، لكنه بشر، ففي 100 قضية يصيب في 95 أو 96 و5 قضايا لا يُوفَّق فيها، وهذا على بشريَّته، فصفة الكمال التي عنده وهي العدل ليست سالمة من النقص.

لكن عندما تأتي لصفات الرب الملك–سبحانه وتعالى–كل صفاته سالمة من النقص، فأنت عبد لملك اجتمعت له صفات الكمال وسَلِمَت صفات كماله من النقص.

فيجمع الإنسان الذي أعظِّمه بين أمرين: صفات نقص وصفات كمال، ثم أن صفات كماله ليست سالمة من النقص، وإنَّما جُمع للخلق في كل صفاتهم بين الصفة وضدها، فإذا كان هذا مثلًا عبد حي وله قوة وقدرة، يأتي النوم فيفقده قدرته، فبرغم أنه قوي وشجاع لكن يأتي النوم فيقطع عليه هذه القدرة، شاب في مقتبل العمر يأتي الموت يقطع عليه شبابه، وهذا من أحسن ما قيل في شرح قوله تعالى في سورة الفجر: {وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}(1) يقول أهل العلم أن الله–عزَّ وجلَّ–جمع في الخلق كلهم الصفات المتناقضة، أي أن فيهم قوة وضعف، فيهم حياة وموت، فيهم يقظة ونوم، صفاتك كلها شفع، أي: صفة كمال وضدها، في مقابل أن الله–عزَّ وجلَّ–وتر ليس له إلَّا صفات الكمال، كل صفات الله–عزَّ وجلَّ–صفات كمال، وابتلى الخلق بصفات الكمال والنقص ليعرفوا حجمهم، فأنت عبد لملك قدُّوس وسلام، لكن العباد لا يدركون تسليمه–سبحانه وتعالى–لهم.

3. ثم هذا الملك العظيم الرب الكريم الموصوف بكمال الصفات **مؤمن**، فهو مؤمِّن للخلق ما يخافون، مؤمِّنٌ مصدِّق لهم ما وعدهم، فلك أن تتصوَّر كيف عندما يكون لك ملك كل وعد وعدك إيَّاه خاصة لك لابد أن يَنْفَذ، يقول لكم: {لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ}، وأنت تعرف أنه ملك ومؤمِّن مصدِّق لخلقه ما وعدهم، مادام وعدك أنك لو شكرت سيزيدك، اشكر فقط وسترى وعود الملك!

ومَرَّ معنا سابقًا كلام ابن عباس–رضي الله عنه–، يقول: لو انطبقت السماء على الأرض لوجد المتَّقي له أبوابًا لأن الله–عزَّ وجلَّ–يقول: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}(2) هذا وعد الله! ولو انطبقت السماء على الأرض ستخرج، ستخرج؛ لأن المؤمن إذا وعدك لا يخلف وعده، فالمعنى أنك تحتاج أن تعرف مَن هو الملك الذي أنت عبد له ليبقى في قلبك حسن ظن به.

4. **المهيمن**: الملك العظيم الرب الكريم كل شيء بيده، على كل شيء مهيمن، بل إن السماوات والأرض وهذا الفلك العظيم الذي يقولون لك عنه كل يوم أن درب التِّبانة جزء من دروب عظيمة، كله في يده كخردلة في يمين أحدكم! تام القدرة عليه–سبحانه وتعالى–مهيمن يمسك السماء أن تقع على الأرض، يُجري الفلك في البحر، يحفظ الأرض من أن تتزلزل وإذا شاء فتزلزلت في دقيقتين تختفي دولة! وقد رأينا وسمعنا وهذه لم تكن أول حادثة.

(1) [سورة الفجر: 3]
(2) [سورة الطلاق: 2]

لمَّا حدث إعصار هاييتي وكان في 30 ثانية تساوي طرفة عين فتسقط دولة! لماذا؟ لأن المُلْك مُلكه والأمر أمره وكل شيء بيده.
فتصوَّر أنك عبد لملك يُمسك السماء أن تقع على الأرض، يُجري الفلك في البحر، وإن شاء أوقفهم جميعًا!
المهيمن–سبحانه وتعالى–على كل شيء قائم، وهذا اسم القيوم، فتصوَّر هذه الشمس العظيمة لا تشرق في أرض أحد إلَّا حين تذهب للعرش فتسجد فيأذن الله لها، كل نبضة في قلبك لا تنبض إلَّا بأمره، مهيمن على الكون كله، وأنت يا عبد مِن هذا الكون بل أضعف ما في الكون! لا نبضة تنبض إلَّا بإذنه ولا نفس تأخذه إلَّا بإذنه، والجلطة القلبية التي بمقدار 2 ملم مثل رأس الدبوس، مَن يأمر الدم فيتجلط؟ القائم على سيلانه، وهذا الذي عنده كذا في قلبه وكذا في كبده وكذا في كليته، مَن الذي أحدث هذا ومنع هذا وأعطى هذا؟! المهيمن المُسيطر على كل شيء.
فمن الفخر أن تكون عبدًا لملك هذه صفاته، لكن المُهيمن كيف يفعل في خَلْقِه؟ على كمال صفاته، يعني قيل لك: مع أن كل شيء بيده ومع أن الأمر أمره وأمره نافذ لأنه عزيز–سبحانه وتعالى–لكن مع ذلك لا يأمر إلَّا بما فيه منفعة للخلق لأنه كامل الصفات.

5. **عزيز** أمره نافذ، تخيَّل سهام الليل، تقف بين يدي الرب وتسأله إصلاحًا للقلب أو الأبناء أو الحال أو للبلاد والعباد وهو العزيز، لم تقف عند باب أي أحد يحتاج كذا وكذا ليفعل! بل ذهبت مباشرة للملك الذي يملك كل شيء وهو مهيمن على كل شيء وهو عزيز أمره نافذ، فتصوَّر لما تطلب العزيز الذي أمره نافذ ولا راد لقضائه، سينفذ قضاؤه ولابد! لكن عندما تفهم نفاذ قضائه ضع بين عينيك سورة يوسف وكيف قال أهل العلم أن بين رؤية يوسف وتحققها أقل شيء 35 عامًا، والله–عزَّ وجلَّ–يقول في سورة يوسف: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] هنا علَّة العلل، هنا سوء الظن يأتي، يقول: دعوت ولم يستجب لي. نقول: **(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)**، ألم تسمع النبي–صلى الله عليه وسلم–يقول: ((حَسْبِيَ اللَّهُ وَكَفَى، سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ دَعَا، لَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ مَرْمَى))[2] لا تظن أنك ستقف عند باب أحد غير الله وينفعك، حسبي الله وكفى، ثم حين يدعو: سمع الله لمن دعا، وإذا دعيت: فليس وراء الله مرمى؛ لأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز، أمره نافذ ولابد، لا راد لقضائه، لكن علَّة العلل **(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)**.
6. ثم أن هذا الملك العظيم الرب الكريم **جبَّار** يجبر قلوب المنكسرين، وكم من قلوب منكسرة لا يجبرها إلَّا الله–عزَّ وجلَّ–، ونحن تاركون لهذه العبادة: عبادة توحيد الله بطلب الجبر، لا تطلب جابرًا لقلبك إلَّا إياه، أليس الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير ممن لا يخالط ولا يصبر على أذاهم؟ لكن أذاهم يكسر قلبي؟! عندك ربٌّ جبَّار، اطلبه يجبر قلبك، ولا تطلب الجبر من غيره لأن كل جابر غيره على الحقيقة كاسر أكثر! لأنه اليوم يجاملك ويطبطب عليك وغدًا يجاملك ويطبطب عليك وبعده يجاملك ويطبطب عليك ثم إذا اتصلت عليه لا يرد عليك! مَلّ! يقول: إلى متى تعيدون نفس

(1) [سورة يوسف: 21]
(2) موطأ الإمام مالك، صحيح.

القصة؟! لكن عندما تسجد بين يدي الملك وتعيد نفس الكلام والطلب وهو يرفعك درجات ويسمع صوتك وتعرفك الملائكة وتُذكَر فيمن عنده، ثم يقضي أمره في غاية من اللطف في الوقت المناسب الذي ينفع كل الناس في هذه المسألة وأنت غافل عن حكمته. ثم أن هذا الجبَّار كما يجبر القلوب المنكسرة فهو يقصم الجبَّارين، كأنه يقال لك: لا تحمل همًّا، كل الذين تراهم جبارين سيقصمهم الملك العظيم.

7. ثم أن هذا الملك العظيم **متكبِّر** عن كل أحد، متعالٍ مُتعاظم لا حاجة له عند هؤلاء الخلق برغم عطائه، وبرغم أنه يسمع دعاءهم ويُلبِّي نداءهم ويستجيب لهم، ومع ذلك فهو متكبِّر متعالٍ غني عن الخلق كلهم، ولا تظن أنك تنفع ربك بأي شيء من الطاعات والعبادات، بل هو عنك غني وأنت إليه فقير.

ومن تمام تكبُّره وتعاظمه: أن لو أهل الأرض كلهم عصوه لا ينقص هذا في ملكه أبدًا، لا يضره أبدًا، مَن هذا العبد الذي نفع ربه وأعطى ربه شيئا؟! بل كلنا إليه فقراء-سبحانه وتعالى-فانظر لملكٍ عبوديَّته تزيدك شرفًا، وتفهم من هذا أن المعتز بعبودية هذا الملك لابد أن تنفعه عزَّته، وفي ذلك يقول الشاعر:

وممّا زادنـــي شـــرفًا وتيهًا وكدت بأخمصي أطأ الثُّريا

دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيَّرت أحمد لي نبيًا

هذا يسبِّب العزَّة، أن لا أحد يقربني، أنا عبد لملك أسجد بين يديه، أدعوه وأسأله فيحفظني ويردُّ عنّي كل ما يمكن من شرور. منكم لا أخاف، ليس عندي قلق، مثلما خاطب النبي-صلى الله عليه وسلم-ابن عباس: ((وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ))[1] وإذا ضُررت بشيء قد كتبه الله فأنا أعلم أن الرحمة في داخله، فانظر إلى عزَّة عبد كان حقًّا عبدًا لملك عظيم، هذا الذي ينقصنا.

وبعد هذا الكلام كله كيف يمكن أن يمرَّ على خاطرك أن الملك العظيم يمكن أن يأتي منه شر؟! لا يأتي من ملك هذا وصفه إلَّا كل خير، لكن انظر لأي درجة ضعف معرفتنا به سبَّب لنا أن نرى الخير العظيم شرًا، ثم أن النبي-صلى الله عليه وسلم-يقول في الحديث القدسي: ((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ))[2] ظُنَّ فيه خيرًا سيأتيك خيرًا، عندما تظن به شرًا ستأتيك نفس الأحداث لكن لن تحصل من وراء نفس الأحداث إلَّا شرًا لأن الذي في قلبنا يصبغ الأحداث حولنا!

لا زلنا نتكلَّم عن حسن الظن بالله، هذه العبادة التي لا تنفك عن العبد أبدًا، وهي قاعدة الشكر، فالشاكر الذي ليس بكافر لابد أن يحمل في قلبه لربه حسن الظن به، واتَّفقنا ماذا يجب أن أتعلَّم عن الله ويكون هذا العلم في قلبي من أجل أن أستطيع أن أحقِّق حسن الظن.

---

(1) رواه الترمذي في سننه وصحَّحه الألباني.

(2) رواه أحمد في مسنده، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

هذه الأسماء الحسنى تحتاج لفهمها بعمق لتأتي عبادة حسن الظن، واخترنا من بين هذه الأسماء اسم الملك الذي بيده كل شيء–سبحانه وتعالى–واتّفقنا أننا نتعرَّف على هذا الملك العظيم من خلال كلامه، واخترنا آية الحشر، وعرفنا أن الملك الذي نحن عبيد له ويقدِّر لنا الأقدار ويربِّينا وصْفُهُ أنه قدُّوس سلام مؤمن مهيمن عزيز جبَّار متكبِّر، وفي موطن آخر الملك–سبحانه وتعالى–في سورة الجمعة وصف نفسه بأنه الملك القدوس العزيز الحكيم، فأضيف لصفات الملك السبعة أنه حكيم، وهذا الوصف للملك مناسب جدًا لمسألة حسن الظن لأن الذي يسبِّب سوء الظن أنك تنظر إلى ظواهر المسائل.

النظر لظواهر المسائل قد تجعل العبد يرى الخير شرًا والرحمة نقمة! لكن عندما تعرف أن لك رب وهو الملك الذي عرفت صفاته، وأن هذا الملك حكيم: أي يُجري عليك من الأقدار التي لابد في نهايتها أن تكون خيرًا، وحكمته–سبحانه وتعالى–البالغة لا يمكن أن يبلغها عقل لكن معرفتك به هي التي تسبِّب لك أن تعتقد أن وراء هذه الصورة خير.

ولو نظرنا لكثير من الأقدار التي تجري علينا بعقلنا البشري نراها في أوَّلها شرًا، ثم تجري الأقدار ونرى وراءها الخير! الرب–سبحانه وتعالى–له سنن في معاملة خلقه، سواء عمرك 30، 40، 50. في هذا العمر من المؤكَّد مرَّت عليك أحداث رأيت في أوَّلها شر، ثم رأيت الخير فيها، فذاكرتك مليئة بالأحداث لو حاولت تتذكَّر، وأكيد أنك عرفت ربك لكن بعد هذه المعرفة الطويلة من التجارب ما الذي يجعلنا كأننا لا زلنا أطفالًا في المهد لا خبرة لنا بربنا؟! أننا ننسى، ليست لنا ذاكرة تسبِّب لنا حسن الظن، كم من المرَّات مررنا بمواقف صورتها الأولى شر ثم أتى وراءها الخير العظيم؟

ثم أن ربك الكريم الملك العظيم يقول لك في وصف نفسه: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا}[1]، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}[2] يقول لك في وصف نفسه أنه حكيم: أي يضع كل شيء في موضعه، فالأحداث التي تمرُّ عليك بتفاصيلها خير كثير وبركة عظيمة، لكن لا تنس أن الدنيا ليست غاية والغاية الحقيقية هي الآخرة، كل شيء تفقده في الدنيا ليس حسرة، الحسرة الحقيقية أن تفقد ظل الرحمن وقتما تحرق الشمس الناس حرقًا! الحسرة الحقيقية أن تأتي لا عمل لك لرب كريم وصْفُه أنه شكور يُعطي على العمل القليل الأجر الكثير وأنت حتى هذا العمل القليل ما حصَّلته! الحسرة الحقيقية عندما يُنادى أهل الإيمان أن ادخلوا للجنان ولا تكون من هؤلاء! هذه هي الحسرة الحقيقية.

وهذه الحسرات عندما تَعْظُم في العقل، يشعر الإنسان أنَّها حَقًا حسرة، لَّما تفهم أن هذه هي الحسرات الحقيقية وتعرف أن ربك حكيم، تفهم أن الذي يَجرِي عليك من الأقدار لتنجو في الآخرة والدنيا. لكن أرجع مرة أخرى أقول: إن الآخرة ليست مهمة عند كثيرين، لذلك عندما نقول لك: (لا يُجري عليك إلَّا ما يرفعك) تقول: (اجعل الآخرة للآخرة فأنا تفكيري هنا!) من أجل ذلك كان الإيمان باليوم الآخر سبب للاستقرار النفسي، وأن ليس كل شيء أحصِّله في النصف الأول من الحياة، هناك نصف ثانٍ وهو الأهم أحصِّل فيه الخيرات، والحكيم–سبحانه وتعالى–يدفعك بالأقدار للربح في كلا النصفين، في الدنيا والآخرة، يعني كل الأقدار التي تجري عليك فيها مصلحة ستجدها في الآخرة والدنيا، والدنيا في تفكيرك قبل الآخرة.

(1) [سورة النساء: 122]
(2) [سورة النساء: 87]

كيف أدفع نفسي لحسن الظن؟

غلِّب شأن الآخرة على الدنيا وقل: انظر هذا القدر الذي كله آلام، سيرفعني عنده عندما أتعامل معه كما ينبغي، وأن كل تفاصيل الآلام خير، فلا يأتي من الملك العظيم إلَّا خير، من رب كريم لا يأتي إلَّا الخير، وأنت ترى الضيق وتقول: خير. وتقول إن التفكير ليس هنا، وهذه كلها مضائق لا قيمة لها، ومهما كان هنا وحشة لازال يوجد أُنس لكن أفكِّر عندما أُقبر وحدي، وهذا الذي يحصل من ضيق وراءه خير على الأقل يكون أنيسًا لي في قبري، سيكون شافعًا لي عندما أقف بين يدي الله–عزَّ وجلَّ–.

تعلُّقك بالآخرة وفهمك لها سيعكس على نفسك حسن الظن، بعد قليل وقليل جدًا سترى آثار الحدث الذي عشته وفيه ضيق، سترى كيف يأتي من ورائه الخير في الدنيا قبل الآخرة، لكن أقول لك وأنت وسط الحدث وترى ضيقه وضبابيته والآلام الموجودة فيه: اجمع قلبك وقل إن الذي يعاملني ملك عظيم رب كريم ليس له إلَّا كمال الصفات، فمن حكمته أن ينقص عليَّ هذا، إذا لم ترى أي حكمة في الدنيا فعندما تعامل هذا الحدث كما يحب الله سترى آثاره من عند لحظة القبض في أنك تُثبَّت إلى وقت الحشر عندما تلقى ربك وفي الوسط في هذه الحياة البرزخية.

عندما تسمع كلمة الموت لا تظن أن الناس في قبورهم لا حياة لهم، فالناس ينتقلون من نوع حياة لنوع حياة، من حياة يستأنسون بها مع الخلق إلى حياة لا يؤنسهم فيها إلَّا عملهم، وأنت في الحالتين حَيّ، لكن هذه حياة فيها مَن يؤنسك ومعك ما تأكل به وتشرب وتنام، وهناك حياة لا أنيس فيها إلَّا العمل الصالح وأكلك وشربك من جنَّات النعيم–نسأل الله من فضله–.

وأنت مررت بحياة ليست مثل هذه الحياة، ألم تكن في بطن أمك تأكل وتشرب بصورة لا يدركها الناس؟ ألم تكن حيًّا في بطن أمك؟ نعم عشت هذا وكنت منفردًا ولم تبحث عن الأُنس وليس من حاجاتك، ثم خرجت فكانت من حاجاتك الأُنس واستأنست بالخلق، ثم ستخرج من هنا فتعيش وحدك لا يؤنسك إلَّا عملك الصالح، فما دامت هذه حياة وستُقْدِم عليها ولابد من أن تتزوَّد لها، فاجعل ما يجري عليك من أقدار سببًا للزاد في هذه الحياة من عند القبض؛ من عند ما تبشرِّك الملائكة برب راض غير غضبان إلى أن تلقى هذا الرب فتكلِّمه ليس بينك وبينه ترجمان.

استعد لهذه الحياة، ليس فقط الاستعداد بالصلاة والصوم، هذا جزء مهم لكنه مبني على أنه كلَّما يعاملك الملك العظيم بمعاملة تقول: والله أقسم بالله أن وراء هذه المعاملة خير عظيم لكن عقلي ضعيف لا يدركها، فيقولون: أين؟ لا نرى شيئًا! نقول: أقل شيء أن الكُربة التي أعيشها أكيد أنَّها ستفرّج عليَّ كُربة من كُرب الآخرة يعيشها القوم وأنا لا أعيشها. ألا يأتي يوم القيامة فيتمنَّى أهل العافية لو نُشروا بالمناشير لِما رأوا من منزلة لأهل البلاء؟! تلك الحياة الحقيقية، تلك الأماني عندما تكون فيها ولا تتحقَّق يُصبح عدم تحقُّقها حسرة، فانظر لمُحسن الظن الذي يعرف الملك العظيم وكمال صفاته يُقسم وهو في الضيق إن فرجًا آتي، فإنَّ

مع العسر يسرًا، إنَّ مع العسر يسرًا، لماذا؟ لأنه يعرف مَن ربَّه، ويقول: إن هذه الدقائق والساعات والسنوات وراءها خير كثير، ثم بعدها في الدنيا قبل الآخرة سأرى الفرج.

ألم يدخل يوسف –عليه السلام– وهو كريم على ربه من الجُب للعبودية للسجن؟! وهذا كله في الدنيا، إلى المُلك! ولمَّا عاش المُلك عاشه وقد نسي ما مضى، فالآلام تُنسى وهذا من تمام رحمته وحكمته، وتبقى أُجور الصبر على الآلام، ولو ما كانت تُنسى ما كان عاش الإنسان بعد كثير من الآلام التي عاشها، لكن عندك عدو يهيِّج فيك اليأس والآلام! عدو من شياطين الإنس والجن، يجلسون معك ويقولون: (كنَّا وعشنا) وكلَّما تكلَّمنا أَثَرْنَا أنفسنا على قضاء الله –عزَّ وجلَّ– وقدره.

المقصد الآن من أجل أن يظهر إيمانك الحقيقي بصفات الملك العظيم ومن أعظمها صفة **الحكمة** لابد أن يكون موقفك في أول البلاء –والموفَّق مَن يوفِّقه الله– أن تنظر بنظر مَن يعرف مَن دبَّر هذا الأمر، لو كنت تعرفه فآخر هذا البلاء فرج والفرج قريب.

هذا الإيمان يسبِّب لك حسن الظن به، فإذا أحسنت الظن به آلامك ستنخفض وتبدأ تشعر بما يجب الشكر عليه، وتقول: لو ما عشت هذه المواقف ما كنت عرفت كذا وكذا.

مثلًا: شخص عاش الخوف في موقف أو آخر، كُربة مرَّت عليه وعاش فيها الخوف، بعد هذا الخوف يقرأ في كتاب الله –عزَّ وجلَّ– أو في سنَّة النبي –صلى الله عليه وسلم– ويسمع عن المخاوف يوم القيامة وهو قد عاش جزءً من الخوف فيقول: إذا كان خوف في الدنيا وكان قلبي مخلوعًا وقدماي لا تحملاني فكيف بمخاوف الآخرة! لابد أن أبحث عمَّا يردُّ مخاوف الآخرة، فانظر كيف الرب العظيم يربيك ويكرمك بهذه المضائق التي تحصل لك.

ما الذي يجعلني أنسى الأحداث التي رأيت فيها فرج الله؟ هل هذا نقص إيمان؟

اتَّفقنا أن ذاكرتنا في فرج الله ضعيفة مع أننا عشناها كثيرًا في الصغير والكبير، ما الذي يجعلنا ننسى؟ هي أسباب نسيان النعم.

الفرج الذي عشته عبارة عن نعمة، قد يكون الفرج الذي خرجت له ما شعرت أصلًا أنه فرج، ولو شعرت أنه فرج فعندي أسباب لنسيان النعمة منها: الانشغال بالدنيا وتفاصيلها، ممَّا يسبِّب للإنسان أن ينسى كثيرًا من عطايا الله –عزَّ وجلَّ–.

قُل لي: ما الذي يجعلني أبقى ذاكرًا لتفريج الله؟ الذي يجعلك ذاكرًا لتفريج الله أن تستعمل قوله تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}(1).

مثال: كنت في المستشفى ومرضت وسخَّر الله لي طبيبًا وتعالجت، وأتذكَّر الآلام، فلمَّا أحكيها لأولادي أقول: هذه المستشفى كان فيها طبيب لا يوجد مثله. فتجد أننا نُثني على أحد غير الله! قد مرَّت الأيام فلا تقول: ((مَنْ لاَ يَشْكُرِ النَّاسَ لاَ يَشْكُرِ اللَّهَ))(2) لأننا شكرناه وانتهينا، بقيت الذاكرة التي في عقلك ما هي؟! السؤال هنا، هل تفهم اسم الأول والآخر؟ لأنه الذي يشكِّل لك إعادة النعم لمكانها وصاحب الأسباب.

---

(1) [سورة الضحى: 11]

(2) رواه الترمذي في سننه وقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الحاصل أن كثيرًا من النعم تمرُّ فيُحمد الله باللسان ولا يستقر في القلب نسبتها إلى الله، تمرُّ كما يمرُّ أي شيء ولا تتحدَّث عن الله بالثناء لدرجة أننا نقول: لابد أن نذكِّر أنفسنا دائمًا أنه في هذا الموطن فرَّج الله عليَّ، في هذا المكان أخرجني الله من الأزمة، تبقى تردِّد هذا الكلام على نفسك، لا تتحدَّث عن فلان وعلان! المشكلة ستدور مرة أخرى في نسياننا لنعم الله-عزَّ وجلَّ-.

من الأسماء التي تضيفها للملك العظيم أنه **حكيم**، فمن أجل أن تحسن الظن وتكون من الشاكرين على نعمائه لابد أن تفهم أن ظواهر المسائل ليست حكمًا عليها، فكم أخذ الله بأيدينا إلى الفلاح ونحن نظن أن هذا الأخذ إلى الخسار! ونحن مثل الطفل الصغير الذي لا يدرك حقيقة مسألته.

سأضرب لك مثالًا بحياتنا لتتصوَّر كيف عندما يعامل الكبير الصغير وكيف نحن نعامل ربنا، كثيرًا ما تخرج الأم أو الأب ولا يريد ولده يراه وهو خارج، الشاهد أن ابنتي رأتني وأنا خارجة وأمسكت بي مصرَّة أن تخرج، فسآخذها معي، أقول لها: (تعالي أغيِّر لك ملابسك لنخرج) باب الخروج في جهة وغرفتها في جهة، فحتى أخرجها أرجعها غرفتها، وهي تبكي بكل صوتها: (لماذا؟! من هنا الخروج) وأنا أصر وأقول لها: (لماذا تبكين؟ أنا سأخرجك) وهي لا تفهم! بعدما يلبس ويخرج تخرج الابتسامة على شفتيه ويوقف الصراخ، ونحن نقول: صحيح أني في الصورة الظاهرة كنت آخذك عكس الطريق لكن ما أخذتك عكس الطريق إلَّا لأخرجك في أحسن حال! هذا الطفل الصغير ما الذي ينقصه؟ أن يعرف أنني حقًا أريد مصلحته، فنقْص هذا المفهوم جعله يبكي ويظن بي سوءً ويظن أنِّي أخادعه ويعتقد بي شرًا لأنه لا يعرف أني حقًا أريد الخير له!

كم من المرات أخذتنا أقدار الله لما في ظاهره عكس الطريق وفي حقيقتها لتصل الطريق وأنت في أحسن حال؟!

وها هو اللطيف الخبير ينقل يوسف-عليه السلام-من بلاد لبلاد ويخرجه وهو في أحسن حال. ألم يوصي يوسف-عليه السلام-صاحب الرؤيا قائلًا: {اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ}[1] ما بها الدنيا تضيق بهذه الصورة حتى الذي وصَّاه لم يتذكَّر؟! لا، هذا ضيقٌ إلى فرج عظيم! وانظر الفارق الشاسع بين أن يخرج يوسف على يد هذا الشافع الذي هو سجين مثله وكيف سيترجَّى الملك أن شخصًا طيِّبًا في السجن فأخرجوه، وبين أن يخرج يوسف-عليه السلام-وهو عزيز له الكرامة وله فضل على الملك، أي مخرج كان خيرًا له؟ صحيح لبث في السجن بضع سنين لكن هذه البضع كانت تساوي المُلك! فانظر للملك الحكيم.

قد تقول: يمكن أن أصل لهذا كله بدون هذه الأزمة. نقول: كيف؟! ألَّا تعلم أن الدنيا جبلت على الشقاء لتأتيك اللحظة في الآخرة التي لا عمل ولا تعب إنَّما يحصِّل الناس منازلهم على قدر جهدهم هنا، والدنيا دار ابتلاء، وإذا كان خَلَقَها الله لهذا الأمر ووعدك أنك لو استقمت ستحصِّل الخير الكثير فاستقم لتحصِّل من ورائها المنازل العالية، هل الاستقامة يسيرة؟ لا، لابد أن تمر بتعرُّجات وأنت متمسِّك بالطريق، والذي يثبِّتك في الطريق معرفتك له-سبحانه وتعالى-فكلَّما عرفته تيقَّنت والله كما أن بعد اليوم ستغرب الشمس ويأتي غدًا مثله بل أيقن منه أن فرج الله قريب! وأنه سيأتي من وراء هذا الفرج الخير الكثير، لكن {فَاسْتَقِمْ

(1) [سورة يوسف: 42]

كَمَا أُمِرْتَ}(1) لا تتسرَّع في مشاعرك فتيأس وتكفر بنعمة الله ويقع في قلبك سوء الظن به، ومن جهة أخرى لا تتصرَّف خلاف ما يحب الله.

وهذه الصعوبة: أن ترى ضبابًا أو صورة مسيئة ثم تصبر وتقول: والله وراءها الخير الكثير، فيكون الصبر سببًا لانكشاف الضر، فحسن الظن يكون وأنا أضع قدمي في أول الصورة فأقول: والله خلف هذا البلاء خير كثير، وليس بعد أن ينتهي الموضوع وتنكشف الخيرات أقول: أنا مررت بشيء جيد! هذا التحديث بالنعمة، أمَّا حسن الظن فيكون في البداية والدنيا ضائقة والرؤية معتمة وأنت في الخارج وترى القدر فتقول: والله لا يأتي من ورائه إلَّا خير فهو تدبير من رب حكيم، أهم شيء وأنت في الطريق تستقيم.

ماذا لو ما استقمت؟! مع عدم استقامتك وإن عاملك باسمه الحليم لكن يأتي لك بعض آثارها، وحتى هذا ابنيه على حسن الظن لأن كون الله يذيقك بعض آثار عدم استقامتك فيسبِّب لك الاستقامة ويخفِّف عنك الجزاء يوم القيامة فهذا بنفسه نوع رحمة، فحتى لو تألَّمت من معاملته لك بالعدل لأن الله يعامل عباده بالعدل والفضل، الفضل بأن يتجاوز عن أخطائهم، والعدل بأن يعطيهم على قدر ما فعلوا.

لو نظرت لمعاملة الله–عزَّ وجلَّ–بالفضل أو بالعدل، في الاثنين تُحسن الظن به، فأين العلَّة؟ العلَّة أننا لا نعرف الملك الذي نحن عبيد له، لا نعرف الرب الذي أوجدنا وأمدَّنا وأسعدنا ولذلك لا تجد في قلوبنا الإله، ذاك الإله المحبوب المعظَّم الذي لا تمرُّ خاطرة على عقولنا تقول أن يأتي منه شر، فالرب الذي أوجدك وأعدَّك وأمدَّك والملك الذي يصرِّفك كامل الصفات هو إلهك الذي تحبه وتنتظر منه كل خير، وإن مرَّت بك أزمات أو ضاقت عليك الدنيا فهو وحده مفزعك وملجؤك وهو الذي تستخيره فيدُلَّك كيف تتصرَّف، وهو الذي تقف بين يديه فيعطيك من الخيرات وانشراح الصدر ما لا يستطيع كل الخلق أن يعطوك إيَّاه، فهذا كله مبني على أن تعرف أنت عبد لأي ملك.

راجع نفسك: ماذا تعرف عن الصمد الذي تفزع إليه القلوب في كل حال؟ ماذا تعرف عن الواحد–سبحانه وتعالى–؟ في آية الكرسي ماذا تعرف عن الحي القيوم، عن العلي العظيم؟ كل هذه نقاط ضعف تسبِّب في نهاية الأمر أن أقل مشكلة يصبح الإنسان فيها يؤوس من ربه مالك المُلك، كفور بما أنعم عليه.

فانظر لعبادة حسن الظن كيف لا تنفكَّ عن العبد، وحسن الظن وسوؤه ليس فيما يخصُّنا فقط بل فيما يخصُّ غيرنا، فأحيانًا أقف أمام شخص وُلِد وهو معاق فيمرِّر الشيطان في عقلي: لماذا يا ربنا تفعل به كذا؟! فهذا سوء ظن، وتقول لي: (لكن أجبني، لماذا يفعل به ربنا كذا؟) لن أجيب! لأن الملك العظيم الرب الكريم الذي صفاته كمال وراء كل أفعاله حكمة، لكن العقل الصغير لا يمكن أن يدرك ولا حتى اليسير من حكمته! فحين تكون معظِّمًا الله حق تعظيمه ليس لك إلَّا حسن الظن به، وانتظار الخير منه. حسن الظن هذا سيسبِّب الشكر على الأحوال كلها.

(1) [سورة هود : 112]

- فلماذا لا يوجد شكر؟
  - لأنه لا يوجد حسن ظن.
    - لماذا لا يوجد حسن ظن؟
      - **لأننا نجهل ربنا.**

نعرف توافه الأمور ولا نعرف ربنا! ولذلك لام الله الخلق لِما يعرفون من ظاهرٍ من الحياة الدنيا كما قال تعالى في سورة الروم: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}[1].

عندما أتى زلزال تسونامي الأول لإندونيسيا كنَّا نقول: إن هذا أمر الله وقدره، والله حكيم، ولا شيء كان سيرده، وكانوا يقولون: (لو كانت هناك مقاييس للزلزال البحري كانوا استطاعوا أن ينقذوا الناس ويفعلوا ويفعلوا) 3 سنوات أو أقل، من تسونامي ذاك إلى تسونامي الذي أتى بعده! كل ما تتصوَّر من أدوات حديثة موجودة ومع ذلك في أقل من دقيقتين تكاد تختفي دولة! لأن أمام المِلك لا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئًا، ومع هذا لازلت تجد أن الله يعامل الخلق بالحلم، ولازالوا عندما ينظرون لقدرته وعظيم سلطانه يكلمونك عن الدنيا وأهلها ويناقشونك عن التفاصيل بشيء من القصور! إذًا لماذا لم تنفعهم أدواتهم؟! لأنه الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء. أترى كل هذه الأسباب؟ من عظيم نعمائه.

- **مَن الذي قبل: الله أم الأسباب؟**

الذي سبَّب الأسباب هو الله، والذي ينفعك بها الله.

فإذًا عندما يريد الله أن ينفعك بالسبب ينفعك، وعندما يريد أن يعطِّل عليك السبب يكون بين يديك ولا تنتفع به! هؤلاء قوم إبراهيم وها هي النار وهذه إرادة الإحراق، وادٍ كله جمر مشتعل ومن حرارته لا يستطيعون أن يقتربوا ويرموا إبراهيم، ورموه بالمنجنيق من مكان بعيد وألقوه في الوادي، فهذه النار التي هي سبب للإحراق يعطِّلها الأول الذي سبَّب الإحراق فيها ويجعل هذه النار بردًا وسلامًا، لماذا؟ لأن الذي أعطى الأسباب هو الأول، والذي ينفع بها ويعطي نتائجها هو الآخر، فمهما كانت الأسباب بين يديك فلن تنفعك إلَّا بأمره، فأحسن الظن بالله.

الذي ابتلاك سيعطيك من أسباب الخروج ما لا يمرُّ على خاطرك، هو مالك الأسباب، وستأتي أحداث وأوضاع لا تملكها وتخرج من الأزمة، فقف عند باب رب الأسباب واسأله أن يسبِّب لك أسباب الفرج، وعندما تقف بين يديه اشكره أنه مع سلطانه وعظمته وتكبُّره واستغنائه فتح لك بابه خمس مرات في الصلاة، وليس فقط، هناك موعد خاص في ثلث الليل الأخير يقترب منك–سبحانه وتعالى–وهو القريب العالي، العظيم في مُلكه، ويقول لك: ألك حاجة؟ يناديك وهو المستغني عنك: هل من سائل فأعطيه؟ هذا بنفسه يحتاج لعبادة شكر متصلة.

---

(1) [سورة الروم : 7]

لو قال لك أحد: الشهر القادم عندك موعد مع الملك. ماذا يحدث في النفس من الفرح! فكيف لما يقال لك: ستلقى الملك خمس مرات في اليوم؟ لكن {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا}(1) لماذا لا يوجد هذا التعظيم؟

ضعف الإيمان بالغيب سبَّب كل هذه السلسلة من ضعف الشكر، فالصلاة لوحدها تحتاج عبادة شكر طويلة أن فتح لك الباب وجعلك تسجد بين يديه وتطلب ما تريد وهو الملك المهيمن العزيز الجبار، في أي وقت تطلب هذا هو الباب مفتوح.

فالعبد كلَّما اقترب وعرف ربه، ابتلي توحيده: هل أنت لواحد أم مشتَّت فيك شركاء متشاكسون؟

أسأل الله أن يجعلنا لواحد، ويقوي توحيدنا، ويعلِّمنا عنه، ويزيدنا حسن ظنٍ به-سبحانه وتعالى-.

يتبع اللقاء الرابع والأخير..

(1) [سورة نوح: 13]

اللقاء الرابع

اللقاء الرابع

عناصر الدرس:

- من أعظم أسباب صعوبة الشكر التعوُّد على النعمة.
- ذكر أمثلة لنعم كثيرة نتمتَّع بها والغفلة والتعوُّد عليها أغفلتنا عن عبادة الشكر
- مراجعة لأسماء الله الواردة في أواخر سورة الحشر.
- مبحث في حسن الظن بالله.
- من آثار عدم الشكر نزع البركة.
- مفهوم البركة.
- نموذج نزع البركة: قصة قوم سبأ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمده-سبحانه وتعالى-أن يسَّر الأسباب، ونسأله-سبحانه وتعالى-أن يبارك في هذه الأسباب ويجعل قلوبنا وعاءً للخير ويملأها خيرًا بهذا العلم العظيم وهو الفهم عنه-سبحانه وتعالى-والفهم عن نبيِّه-صلى الله عليه وسلم-.

مَرّ معنا الكلام حول **عبادة الشكر التي تمثِّل نصف العبادات**، أو تكاد تمثِّل الدين كله.

فإذا نظرنا لها من جهة قلنا إن الشكر والصبر يتقاسمان العبادات، فالعبادة في حياتك كلها عبارة عن شكر وصبر.

ولو نظرنا نظرة أخرى سنقول: إن الحياة كلها تستلزم منك عبادة الشكر، حتى توفيقك للصبر يستلزم منك شكرًا، كونك وُفِّقت أن تكون صابرًا حكيمًا ضابطًا لنفسك، فينتهي الأمر إلى أن عبادة الشكر تكاد تكون الدِّين كله.

لكن هل القلوب كلها قابلة لهذه العبادة؟ هناك عبادات كثيرة بدنية، يمكن أن تتحمَّلها النفس فتُنجزها، في مقابل أن عبادة الشكر تغفل وتسهو عنها! لماذا؟ هل لصعوبتها؟ نعم.

عبادة الشكر من أصعب العبادات، لماذا؟

مَرَّ معنا الكلام حول المؤثِّرات التي تؤثِّر على الإنسان وتحوِّله لكافر بأنعُم الله، واتَّفقنا أن كلمة (كافر) التي نستعملها في هذا السياق تعني كافر كُفر نعمة أي الكفر الأصغر، الذي لا يُخرج عن الملَّة.

ذكرنا عدَّة أسباب، هذه المرة سنذكر سببًا واحدًا يجعل عبادة الشكر صعبة **وهو**:

التعوُّد على النعمة.

فتُصبح النعمة عادة، فلا يشعر العبد إلَّا بما ينقصه فقط، ولو جاءه يشكر، لكن كل شيء موجود لا يشعر به، وسأعِّدد أمثلة لذلك ثم ننتقل لنموذج للكافرين.

نضرب أمثلة لنعم كثيرة نتمتَّع بها والغفلة والتعوُّد عليها أغفلتنا عن عبادة الشكر:

نبدأ بالأشياء الماديَّة.

-القدرة على التنفُّس، من هذا الأمر الصغير، والقدرة على إدخال الماء والطعام وإخراجه، هذا النموذج بالضبط سترى ضده الذي يحملك على الشكر العظيم عندما ترى المرضى في المستشفيات، تفهم إلى أي درجة أنت مُنعَم عليك بيسر وسهولة هذا العمل.

-نترقَّى لنرى نعمة عظيمة مثل **نعمة الستر**، فلو تفاضحت ذنوب الناس وخرجت خباياهم وظنونهم ما عاشرهم أحد! وهذا الكلام على كل الناس، لو تفاضحوا بذنوبهم التي تخصُّهم في بيوتهم، أو بما يمرُّ حتى على خواطرهم من ظنون قلوبهم عندما عاشر

أحد أحدًا! فمِن نعم الله العظيمة على الخلق أنه يسترهم، وهذه النعمة وهي معاملة الله لخلقه باسمه **الستير** نعمة مغفول عن شكرها، مرَّت علينا الحياة وربنا يعاملنا بستره على ما بطن وظهر من الأمور.

-من المسائل المهمة جدًا والتي تعتبر نعمة عظيمة: **أن ليَّن لك أطرافك** من أجل أن تكون راكعًا ساجدًا، نعمة عظيمة لا يشعر بها إلَّا مَن قَسَت أطرافه.

إلى آخر ما نتصوَّر من النعم سواء كانت المادية أو المعنوية أو الدينية، بل إن ما يرزقك الله به من طباع **وسماحة نفس وكرم وحسن خلق وسعة تحمُّل للخلق**، هذه كلها من نعمه، وأنت لابد أن تكون عليها شاكرًا.

فضعْف التأمُّل في حالنا وفي نِعم الله-عزَّ وجلَّ-علينا أضعف عبادة الشكر، وأصبحنا لا نرى نعمةً إلَّا ما وافق هوانا فقط! والذي لا يوافق هوانا ليس بنعمة! ولهذا كُمَّل الإيمان يرون أقداره كلها نعمة.

آخر عبادة ناقشناها هي عبادة حسن الظن بالله، واتَّفقنا أن الذي يشعر بالنعم سيترقَّى أن يكون دائمًا مُحسن الظن بالله، هذا الذي يترقَّى-في غالب حاله-سيرى كل أقدار الله نعمة؛ لأنه يرى وراء هذا الضيق الفرج العظيم.

يقول لنفسه: (لو ما دخلت هذا النفق الضيِّق ما كنت أستطيع أن أخرج لهذه السعة العظيمة) فهو في داخل نفسه يُثني على الله ويشكره أن أدخله النفق قبلما يخرج للسعة العظيمة لأنه مُحسن الظن ومتأكِّد كما أن بعد اليوم غد، كذلك بعد هذا الضيق فرج، لكن ليس أي فرج، الفرج العظيم! النعمة التي كان لا يستطيع أن يُحصِّلها إلَّا عن طريق هذا الضيق.

ولو نظرت ليوسف-عليه السلام-ستتصوَّر، من الجبِّ إلى العبوديَّة إلى السجن، ثم كان هذا طريق الرُّقي للمُلك! يأتي من يقول: (فليعطينا الله الرزق من دون هذا كله)! نقول: لو كنت في الجنة ستتمنَّى ويأتيك مرادك، لكن اختبار المرء هنا في أن يبتليه الله، يُضيِّق عليه فيرى حاله هل يشكر أم يكفر، فإذا شكر خرج إلى السعة، وإذا كفر حتى لو خرج إلى السعة لا يشعر بها!

فما دمت تفهم أن هذه الدنيا دار ابتلاء؛ إذًا لابد من ضيق يسبق السعة، ولابد أن كل سعة هناك ما هو أوسع منها، ولا تصله إلا مع ضيق شديد! هذا حكم الله على أهل الأرض، سننه، يرقِّي الخلق من ألطف وأضيق المخارج، ثم يعاملهم باسمه اللطيف فيخرجهم من حيث لا يحتسبون، فمَن أحسن الظن كان في الضيق كمن كان في السعة، ومَن أساء الظن ضاقت نفسه عن ذكر الله وشكره، وإلَّا فمَن هذا الذي يكون في سجن، مظلوم، بعد عبودية وجب، ويكون همُّه في السجن أن يدعو إلى الله؟!

يوسف عليه السلام ماذا كان موقفه في السجن؟ {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[1] أي أنه وهو في الضيق كان مُحسنًا، فكيف وهو في السعة؟!

نحن نشعر أن المضائق تقلب أخلاقنا، فنكون شديدي الحزن، شديدي العصبية وقت الضيق، ما السبب؟ لماذا هذا حالنا ويوسف عليه السلام أصحابه في السجن ما رأوا منه شيئًا، ما رأوا إلا خُلُقه، ثم قالوا له: {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}! ما الذي في نفسه؟ وما الذي يعتقده لذلك كان في هذه الحال؟

(1) [سورة يوسف: 36]

حسن الظن بالله، الذي يحسن الظن تهدأ نفسه ويقاوم سوء الظن الذي يلقِّنه إيَّاه الشيطان، فينزِّه الله ويقاوم الخواطر.

جمعنا بين ثلاث مفاهيم المرَّة الماضية، بين:

- الشكر.
- وحسن الظن.
- والتسبيح.

هناك علاقة بين الشكر وحسن الظن: كلَّما كان الإنسان يشعر بنِعم الله، وفي عقله سِجِلٌّ واضح وذاكرة قوية لنِعم الله كان أكثر حسن ظنًا بالله، وركزنا أننا كل يوم نردِّد على أنفسنا من أسماء الله-عزَّ وجلَّ-ما يزيدنا حسن ظن به، وقلنا: بالذات اسم الملك، فاسم الملك هو الذي وراءه التدبير، فالملك العظيم هو الذي يدبِّر شأن الناس.

ما صفات الملِك الذي يدبِّرني؟

مررنا على صفات الملِك في آية سورة الحشر. قلنا: إن الملك الذي يدبِّرنا وصفه:

1. أنه **قدُّوس**: أي منزَّه عن كل نقص، موصوف بكل كمال.
2. ثم أنه-سبحانه وتعالى-: **سلام**، صفات كماله سالمة من النقص، فكل صفاته صفات كمال، وصفات كماله سالمة من النقص.
3. **مؤمن**: أي مصدِّق لخلقه ما وعدهم، مؤمِّن لهم من المخاوف، كل شيء وعدك الله إيَّاه لابد أن يفي لك بوعده، لذلك كان لابد أن تثق بهذا الملك العظيم ثقة تامة وتُحسن الظن به، ولو تأخَّر شيء، فقد تأخَّر من أجل أن يأتيك في أحسن حال!
4. ثم أن هذا الملك العظيم الرب الكريم الذي يدبِّر شؤونك مع وصفه أنه قدوس سلام مؤمن فهو **مهيمن**: كل شيء بيده-سبحانه وتعالى-بل السماوات والأرض كلها في يمينه كخردلة في يمين أحدكم، فهو على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، وكل شيء في مُلكِه، لا يستطيع أحد أن يخرج عن سلطانه، وهو مع هذا مطَّلع على كل شيء في حال خلقه، فليس بغائب عنهم وليس ببعيد، وعليهم كلهم مهيمن-سبحانه وتعالى-، فهذا الملك الذي أنت عبد له مع كمال صفاته لا يخلفك وعده، وأنت شديد الثقة به وتعلم أن كل شيء بيده.
5. ثم مع فهمك أن كل شيء بيده وأنه مهيمن على كل شيء وقريب لكل شيء، فهو **عزيز**-سبحانه وتعالى-أمره نافذ، لا راد لأمره {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}(1) لا زالت هذه علَّتنا أننا لا نعلم مَن هو ربنا.
6. ثم أن هذا الملك العظيم الرب الكريم مع كل هذه الصفات فهو **جبَّار**، يجبر قلوب المنكسرين، ويقصم الجبارين، فأي مظلمة لك لا تسأل إلَّا إياه، يجبر قلبك من أثر المظلمة ويقصم الجبَّارين.

---

(1) [سورة يوسف: 21]

7. ثم مع كل عطائه هذا وقربه وعنايته بخلقه، فهو **متكبِّر** عنهم غير محتاج إليهم، متعال-سبحانه وتعالى-لا يمكن لخلق أن ينفعوه ولا عبادة ولا شكر تنفعه-سبحانه وتعالى-إنما النفع كله للخلق، فمع عطائه وقربه وزيادة عنايته بخلقه ووفائه بوعده وجبره للخلق، مع كل أنواع العطايا فهو عن شكرهم مستغنٍ، لكن المصلحة في الشكر عائدة لك، قال تعالى: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}[1].

لكننا أدخلنا سياسات أخرى للمحافظة على ما نملك! سياسات بعيدة عن الشكر، فعندما تريد المرأة أن تحافظ على زوجها مثلًا، ما سياستها في المحافظة عليه؟ شدَّة المراقبة له، وتغفل تمامًا عن قوله تعالى: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} نقول: (الحمد لك يا ربنا، أعطيتنا النعمة)، إلى هنا الحمد لله، لكننا تصوَّرنا أن المحافظة على النعمة دورنا! ما تصورنا أن الذي وهبنا هو الذي يحفظها، ولذلك لا يوجد ((احفظ الله يحفظك))[2] ولا {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}!

وعلى ذلك نسعى بأقدامنا وأيدينا وأفكارنا، ونُشغِل أنفسنا في المحافظة على هذه النعمة، ونخاف لو خرج أن يرى أحدًا أو يُعجَب بامرأة أو يغضب مني لأني فعلت أو فعلت، ولا أتصوَّر أن قلبه ممكن أن ينقلب عليَّ دون أن أفعل أي شيء، ألا تَحْدُث هذه المواقف؟! ليس شرطًا مع الزوج، حتى مع مَن نعاشره، فجأة بدون مناسبة انقلب؛ لأن قلبه يقلِّبه الله.

قاعدة حفظ النعمة الشكر، ثم أنه-سبحانه وتعالى-وعدك ولا يُخلف وعده، قال: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} لكن إذا اتَّكلت على نفسك بحفظ النعمة فقد بدأت بإهلاكها!

نعود لما يسبِّب لنا حسن الظن:

الشكر مبني على معرفة أن الذي وهب لنا النعمة هو المِلك، والذي يعاملنا فيها وفي غيرها هو المِلك، ونحن وظيفتنا العبودية، اسمنا المشترك أننا عبيد، نحن عبيد لأي ملك؟ لملك كامل الصفات، من الشرف أن تكون عبدًا له، وهذا الملك ليس مثل ملوك الدنيا أبدًا، إنما ملك مستغنٍ عنك، أنت إليه فقير، يعطيك ليس من أجل أن تعطيه، فأنت لو اجتمعْت أنت ومَن في الأرض كلهم أحياءهم وأمواتهم من أجل أن تنفعوه بشيء لا يبلغ أحد فيكم نفعه، فهو عن كل أحد سبحانه مستغنٍ. إذًا لماذا نشكر؟ لأن الشكر مرجعه ومردّه لنا {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}.

واعلم أن هذا الملك الذي نحسن الظن به لكمال صفاته سيأتي لنا عدو يشوِّشنا في كل حال! الملك يُدخلنا في اختبارات وهذه الاختبارات عبارة عن مضائق تَخرُج منها إلى السعة، إلى فضاء واسع، لكن وقتما نكون في الضيق يأتينا عدوُّنا فيوسوس لنا أن لا فرج، أنه الهلاك، بكل أنواع التخويف!

(1) [سورة إبراهيم: 7]
(2) سنن الترمذي، 2516، صحيح

ما دورنا من أجل أن نحفظ على أنفسنا حسن الظن بالله؟

آية سورة الحشر: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ} ثم ماذا؟ {سُبْحَانَ اللَّهِ}(1)

فعندما تسبِّح بعد الصلوات كأنك تقول: أنا أنزِّهه-سبحانه وتعالى-وأُبْعِد من خاطري أي خاطر يمر عليَّ فيه سوء ظن بهذا الملك العظيم.

إذًا أنت طيلة الوقت على درجة من التوازن النفسي والانشراح القلبي بأنه لا يأتيك إلَّا خير من الملك العظيم، حتى عندما يعاقبك على خطأ وقعت فيه، مع أنه أولًا يعاملك بحلمه الطويل العظيم، غمرنا الله بحلمه وإلَّا ما بقيت نِعم على خلْق، وحلم الله ليس باليوم أو اليومين أو الثلاثة أيام بل بعشرات السنين، ويكفي في حلمه ستره على الخلق مع الجرائم التي تُرتكب-نسأل الله أن يغفر لنا-في الخلوات، ومع الظنون التي تُرتكب في حقِّه، ومع ذلك يعاملنا بحلمه.

لكن إذا وقع وعاملك بشيء من العقوبة فأولًا لابد أن تعرف أن عقوبات الدنيا كلها اسمها ذوق، فقط تذوق العقوبة، ثم هذا الذوق الذي تذوقه لأنه رب عظيم وله صفات الكمال لا يُخرجك إلَّا لخير، مع أنها عقوبة لكن لا تُخرِجك إلَّا لخير، فالعبد عندما يحسن الظن بالرب يرى حتى العقوبات مُخرِجات إلى خير، فحين يأتيك عدوُّك ويخوِّفك من أي شيء لا تظن ما يمليه عليك؛ لأنه يملي عليك مخاوف وأنت الواجب عليك أن تطمئن للملك الذي يدبِّرك.

مثلًا لو كانت لشخص قضية شائكة في محكمة، وقيل له: (هذا محامٍ شاطر-كما يعبِّرون-وله في القضايا تاريخ طويل، وهذه 100 قضية نجح فيها، فسلِّمه قضيتك وسترتاح) أول ليلة يسلِّمها إياه يبات مطمئنًا متصورًا أنه أزاح الهَمَّ عن نفسه وذهب لمن صفاته تصلح لهذه القضية! فانظر لقوة الثقة بالناس وضعف الثقة بالله!

لا يبات العبد مهمومًا إلا إذا كان لا يعرف الله، لكن لو كان يعرف الله حق المعرفة لظنّ فيه حسن الظنّ، وحُسْن الظنّ لا يمنع عملًا واستغفارًا وتوبةً وسعيًا بالقدم، وكلَما وسوس الشيطان –ولابد أن يوسوس-سبَّح العبد ونزَّه الله، فالأفعال موجودة والقلب مطمئن.

ما معنى التسبيح؟

أي كلَّما خطر على بالك خاطر-بأي نوع من المخاوف-خصوصًا في أوقات الضيق، تنزِّه الله أن يعاملك هذه المعاملة، والله-عزَّ وجلَّ-يقول: ((أنا عند ظن عبدي فليظن بي ما شاء))(2)، أي أنك إذا ظننت به ظنًّا حسنًا ونزَّهته أن يأتي من عنده شر عاملك بهذا، وإن ظننت فيه ظن سوء وظننت أنه يأتي من عنده شر أعطاك الخير لكن ما متَّعك به! تبقى طيلة عمرك متقلِّبًا في مخاوف، قلق وفزع، ويأتيك الخير وطيلة الوقت تتكلَّم عن مخاوف، لماذا؟ سيطر الشيطان على القلب، دائما يقول: (ما الذي يضمن لي أن

---

(1) [سورة الحشر: 23]

(2) رواه أحمد في مسنده، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

هذا البيت سيبقى؟! ما الذي يضمن لي أن الزوج لا يتركني؟! وأن هؤلاء البنات لن يتزوجوا ويتركوني؟!...) من أين نأتي لك بضمانات!

أنت في ضمان الملِك وأمانه، فاسأل الملِك الذي يدبِّرك أن يجعلك في حفظه وأمانه وضمانه، لكن لأنك لا تعرفه ولا تحسن الظن به عندما تأتيك خواطر سوء الظن لا تسبحه، لا تنزِّهه كما ينبغي، لا تدفع خواطر سوء الظن فتزيد سيطرته عليك! وغالب ما يحصل في المجتمع من قلق يأتي من مخاوف، فلو كانت ستنجز في الصباح شيئا بسيطًا تافهًا تجدها طيلة الليل تتقلَّب قلقة، ولو كان سيأتيها ضيوف ثاني يوم تجدها طيلة الليل وهي قلقة على ما ستفعل.

من أين تأتي الطمأنينة؟ من معرفة الله، من طلب الاستعانة به، من حِفْظِه فيحفظك.

تصوَّر كيف هذا الإنسان القلِق لا يستمتع بأي شيء في الحياة، شاب قلِق، اشترى سيارة ووضعها خارج البيت، فلك أن تتصوَّر ماذا سيفعل هذا القلِق، كل عشر دقائق سينزل لها، ولو كانت هناك نافذة يطل عليها كان ذهب إليها وعاد كل حين، وتجده خائف أن تُسرق، أو أن يجرحها أحد من الأولاد، إلى آخر قائمة المخاوف، فأصبحت النعمة في حقه نقمة! لأن ليس عنده الاستيداع–أي أن يستودعها الله–، وليس عنده أن هذه النعمة في حفظ الله، ليس عنده {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}، هذا بالإضافة إلى مَن يخاف مِن العين!

نجد والله شبابًا وشابات جاءهم الزهد في أشياء كثيرة لكن ليس مِن مدخل صحيح، هناك مَن يزهد في السيارة الجديدة خوفًا من العين ومِن كذا وكذا، فالقلق عَكَسَ على النفوس الدمار، حتى النعم تتحوَّل في حق هؤلاء إلى نقم! ولذلك: ((أنا عند ظن عبدي فليظن بي ما شاء)) فلو ظننت فيه حسن الظن أعطاك على ما تظن. والمرَّة الماضية قررنا أن عبادة حسن الظن عبادة لا تنفك، فأنت طيلة الوقت تعبد الله بهذه العبادة، إمَّا أن تُحسن الظن فتكون عابدًا، أو تسيء الظن فتكون آثمًا، ثم تأتيك تلك الآية {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ}[1] فما الذي يسقط الإنسان في الحضيض؟ سوء ظنه.

ما علاقة التسبيح بحسن الظن بالله؟

مُحسِن الظن بالله يعرف ما معنى سبحان الله، فسبحان مادتها الأصلية من سَبُح، أي بَعُد، فأنت تسبِّح أي تقول: أنا أبعد كل ظن سيء، كل صفة نقص أبعدها في قلبي عن الله.

مَن الذي يمرِّر عليك خواطر النقص؟ الشيطان، فأنت تعبد الله بدفع خواطر النقص، وإذا دفعت خواطر النقص في الله إذًا أنت تعتقد كماله، اعتقاد الكمال يأتي بالثقة وهي حسن الظن، تقول: (لا يأتي من ربنا إلَّا كل خير، أنا متأكِّد أن بعد هذا الضيق فرج).

بل يأتيك الرجل الذي وصفه النبي–صلى الله عليه وسلم–بأنه لو أقسم على الله لأبرَّه، هذا شخص يعيش على حسن الظن. يُقال له: (سيأخذونك نتيجة هذا الدَّيْن الذي عليك)، فيقول: (والله سيفرّج الله علي)، ويفرّج الله عليه بما قام في قلبه من حسن ظن!

(1) [سورة فصلت: 23]

فهذا الذي لو أقسم على الله لأبرَّه لابد أن يعرف ربه حق المعرفة، ولابد أن يكون مسبِّحًا له حق التسبيح، ولابد أن يكون منزِّهًا له حق التنزيه، وهذا كله يبني حسن الظن، المعرفة مع التنزيه تأتي بحسن الظن الخالص.

ماذا كان يظن يونس–عليه السلام–وهو في بطن الحوت؟ ماذا قال؟

{لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ} أي أسبِّحك وأنزِّهك أن يكون ما حدث لي من دخولي في بطن الحوت ظلمًا، إنَّما ضيق إلى فرج، ثم: {إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}(1) أنا الذي كنت من الظالمين.

ومثله موقف أيُّوب–عليه السلام–، قال وهو في شدَّة الألم: {مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}(2)، هذا الذي أظنُّه فيك، أنا مسَّني الضُّر، ولم يقل: (أنت يا ربنا مسستني بالضر)، قال: {مَسَّنِيَ الضُّرُّ}.

وهذا من تمام التأدُّب وحسن الظن بالله، ثم ماذا يظن في ربه؟ {وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}.

ولذلك مَن أراد أن يفهم حسن الظن فليعتكف على سورة الأنبياء ويرى كلامهم عن ربهم وتعظيمهم له وحسن ظنِّهم به، فكلَّما مررت بالألم تقول: (أنا على يقين وحسن ظن بالله أنه أرحم الراحمين)، كلَّما دخلت ضيقًا بسبب سوء تصرُّف منك تقول: (سبحانك إني كنت من الظالمين)، كل هذا مبنيٌّ على معرفتك بالله.

فلو أردت أن أضع برنامجًا مثلًا لعلاج القلق، عندي مثلًا مراهق قلِق، شاب قلِق، ماذا سأفعل؟ ما قاعدة معالجة القلق؟ معرفة الله. القاعدة التي تسبِّب الطمأنينة وانشراح النفس أن تكون سورة الإخلاص قاعدة الحياة، فقط سورة الإخلاص، وهذا لا يعني الاستغناء عن غيرها، لكن نقول: هات سورة الإخلاص ستعرف ماذا تفعل بعد ذلك؛ لأنك في كل المواطن وقبلما تنام تذكِّر نفسك فتقول: لا تقلق، لا تخف، فأنت لك واحد صمد.

ما معنى الصمد؟

أي تفهم أمرين:

1. أنه كامل الصفات، وهات كل الصفات وقل عنها أنها كاملة.
2. تفزع إليه كل الخلائق فيعطيهم مرادهم.

فعندك واحد فقط، لن تتشتت، ولن تذهب يمينًا ولا يسارًا، واحد فقط، وصْفُه أنه كامل الصفات. ما فِعْلُه؟ فِعْلُه أنه يعطي خلقه كل مرادهم، متى؟ عندما يفزعون إليه. ستفزع إليه بماذا؟ أول فزع حقيقي هو الفزع بقلبك، ثم بعد القلب يأتي البدن، لكن

---

(1) [سورة الأنبياء: 87]

(2) [سورة الأنبياء: 83]

وأنت على فراشك أول ما يأتيك الشيطان ويقول لك: (سيحصل لك حادث عندما تركب غدًا السيارة ويحصل لك مثل فلان)، فمباشرة يفزع قلبك إلى الله وتطلب حفظه-سبحانه وتعالى-، وعلى هذا يندحر الشيطان؛ لأن لك مَن تصمد إليه.

عيب القلقين الاسترسال للفكر والاستسلام له، عيب الموسوسين سواء قلق أو اكتئاب أو وسوسة أنهم لا يقطعون الوساوس، أقطعه بماذا؟ أذكِّر نفسي بأن لي واحد صمد ألجأ إليه في الرخاء والشدَّة، ثم يمكن أن يعبَّر عن هذا الفزع بعمل، ولذلك كان النبي-صلى الله عليه وسلم-أول ما تضيقه المضائق يفزع إلى الصلاة، فيفزع إليه، يصمد إليه.

سورة الاخلاص التي يحفظها أبناؤنا من رياض الأطفال تشكِّل شخصياتهم! نحن دائمًا كلنا {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[1] مهما كان في ظاهرنا قوة، وطفلك هذا صغير ضعيف، سيكبر وسيبقى ضعيفًا، فالضعفاء كلهم بحاجة إلى قوي، مَن القوي؟ الله، ما علاقتك بهذا القوي؟ إليه تفزع.

لا ينتهي الكلام عن حسن الظن أبدا! لكن لنتَّفق فقط على القاعدة:

⇐ **حسن الظن مبني على أمران وهما:**

1. معرفة الله.
2. وتنزيهه.

أي المعرفة مع التسبيح، وحتى لا تنساها كن حافظا لآية الحشر: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ} إلى أن وصلنا إلى {سُبْحَانَ اللَّهِ} أي الملك اعرفه وسبحه، وهذا يورثك حسن ظن به.

عبادة حسن الظن لا تنفك عن العبد، إمَّا تكون محسنًا الظن أو مسيئه، ليست هناك حالة ثالثة، سواء في حالك أو حال غيرك، فأنت أحيانا تمرُّ على مريض أو معاق أو فقير ثم تسيء الظن في الله، تقول: لماذا يا رب فعلت به هكذا؟ فهذه الكلمات سوء ظن في الله، ليس على حالك إنَّما على حال غيرك، فأنت تقلِّب بصرك في الحياة وتمرُّ عليك أحداث إمَّا مسيء الظن بالله أو محسن. إذًا لا تنفك عن حسنات بسبب حسن الظن، أو سيئات بسبب سوء الظن.

- **من أين آتي بحسن الظن الذي يدفع سوء الظن؟**

لو ملأت نفسك بحسن الظن سيندفع سوء الظن، وسوء الظن ليس قضية طويلة، إنَّما تمر على القلب في ثوان، مناقشة قلبية وتنقلب الصفحة وتذهب!

حسن الظن مبني على أمرين:

1. معرفة الملك العظيم.
2. وتنزيهه-سبحانه وتعالى-.

(1) [سورة النساء: 28]

تعرفه، وكلَّما ازددت معرفة زاد عدوُّك بالضغط عليك. وأنت في الضيق بالذات يقول لك: (لن تنفرج الهموم، لن تخرج من هذه المشكلة، ستخرج منها إلى أسوأ ما يكون)، وهو يلقّنك هذا الكلام ماذا تقول؟ (لا والله، لا يأتي من الملك العظيم إلَّا كل خير، لكن ليس شرطًا أن يكون الخير على هواي، الأكيد أني سأخرج إلى خير وإن كنت لا أفهم ما هو الخير) كم دخلنا مضائق رأينا فيها الشر التام لكن كان فيها الخير.

ألم يخرج يوسف عليه السلام من الجبِّ إلى العبودية؟ البئر أهون حالًا من العبودية، ثم كنَّا نتصوَّر أنه سيخرج من العبودية لفرج لكنه يخرج من العبودية إلى أسوأ منها، إلى السجن، لكن في نهاية الأمر تنظر فترى أن هذا هو الطريق إلى المُلْك، لكن الذي يعرف ربه يقول كما قال يوسف–عليه السلام–: {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي}، يرى هذا كله من الإحسان، ثم يقول: {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[1]، أي عاملني الله باللطف ونقلني بلطفه من حال إلى حال وهو العليم بما يصلحني الحكيم في فعله.

ومثله موسى–عليه السلام–، عندما كان في تلك الحال عند فرعون ثم هرب ثم عاد ثم قاد.

الله–عزَّ وجلَّ–يقول عن هذه الأحداث كلها التي حدثت من فعله–سبحانه وتعالى–على موسى: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}[2]، {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}[3]، {وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا}[4]، كل هذا ليصلح للقيادة، فكان كل هذا تجهيزًا للقيادة! فسبحان مَن دبَّر خلقه على كمال صفاته، ونقل الخلق من ضيق إلى سعة رفعة لمنازلهم، فمن قَبِل رَفَعَه الله، ومَن ردَّ رِفْعَة الله لا يُرفع أبدًا! نسأل الله أن يحسن ظنوننا فيه ويفتح لنا باب العلم به ويجعل تسبيحنا حقًّا تسبيح؛ لأن التسبيح الذي يخرج من اللسان لا بد أن يوافقه الجنان حتى يثقل ميزان العبد.

مناقشة حسن الظن توصل إلى الشكر، فكلَّما حدث لي حدث سواء نظر الناظر إليه أنه خير أو شر في نهاية الأمر أتجرَّد وأنظر إلى أن فاعله كامل ومحدثه كامل فيبقى لساني لاهجًا بالشكر له–سبحانه وتعالى–، يبقى الشكر ديدن العبد، يعلم أن النعم منه، وأن حفظها عليه–سبحانه وتعالى–، لكن بين أن يهبك وأن يحفظ النعمة هناك عبادة أنت تقوم بها وهي الشكر، فإذا انعدم في القلب الشعور بالنعم من المؤكَّد ستنعدم عبادة الشكر، فلا تسأل بعد ذلك عن تفرُّق النعم وذهاب بركتها.

أمَّا ذهاب بركتها فهذه مسألة نعاني منها وغير مُلاحَظة، الناس يقولون: (الشكر يسبِّب الزيادة، وعدم الشكر يسبِّب النقص لكننا لا نرى نقصا!) نقول لهم: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} وسينزل عليك عذاب وأقرب عذاب أن تُحرَم هذه النعمة، فيرد الناس يقولون: (لا عذاب ولا غيره، لم نشكر والنعم باقية!) سنأتي لمفهوم غاية في الأهمية وهو مفهوم البركة، هذا المفهوم أزيح عن عقولنا حتى في المعاملات البسيطة.

---

(1) [سورة يوسف: 100]
(2) [سورة طه: 39]
(3) [سورة طه: 41]
(4) [سورة طه: 40]

مفهوم البركة:

البركة من صفات الله تعالى، (**تَبَارَكَ**) أي أنه–سبحانه وتعالى–هو الذي له البركة في أسمائه وصفاته وذاته وأفعاله، وهو الذي ينزِّل البركة على الخلق، فإذًا قد تُوهَب مواهب، قد تُعطَى عطايا، لكن بدون الشكر تُنزع بركتها، كأنها تبقى هيكلًا لكن دون نفع حقيقي، وما نراه من عقوق الأبناء أحد آثار نزع البركة، فعقوق الأبناء منهم وهم يتحملونه، لكن أتساءل: (نحن نعيش ونربِّي ونبذل ونتعب ثم في النهاية كل تصرُّفاتهم عكسية!) ويمكن أن يجتمعوا كعصابة على الوالدين! لماذا يحصل مثل هذا؟ إلَّا أن الله نزع البركة من الأبناء.

البيوت واسعة والحمد لله، لكن النفوس ضيِّقة، لماذا؟ نُزعت البركة. أبناؤك كُلٌ منهم في سرير، وكل يوم نفضُّ مشاكل بين المتخاصمين، لماذا؟! مع أن كل واحد في مكان، مع أنهم كانوا ينامون فوق بعضهم سابقًا، الآن كل واحد في سرير لكن نُزعت البركات.

الناس يشترون حوائجهم للشهرين والثلاثة ولا يشبعون، ويأتوا أولادنا كل يوم ضجرين، كل هذا من آثار نزع البركة.

لنرى الجوالات، ولتعرف تاريخك في الجولات اكتب كم جوالًا اشتريته، وانظر كيف هذا سقط في الماء، وهذا احترق إلى آخره، كل هذا من آثار نزع البركات.

بل من أعظم صور نزع البركات أن يحفظ الخلْق القرآن ولا ترى أثرًا لآية من كتاب الله على هذا الشخص!

ثم نأكل أحسن أكل، ونشرب أحسن شرب، في أجواء صحيَّة تامة، ثم يوقظنا أحد من النوم فلا نستطيع أن نقوم، الصحة ضعيفة، وكل يوم يخرج لك سبب لهذه الصحَّة الضعيفة، والصحيح أن البركة نُزعت من الأبدان، من الكلام، من الحفظ، من البيوت، إلَّا من رحم ربي بالطبع.

لكن كصورة عامة الناس في نَهَم، والناس يتوسَّعون ولا يشبعون، في البيوت والملبس والمأكل، ولا يشبعون! لأنهم لا يشكرون، فمن ناحية ماديَّة يعطيهم الله، لكن ينزع منهم البركات، فإذا نُزعت البركات ولم يلتفت أحد إلى خطورة نزع البركة وأن شكرًا لم يحصل، يتحوَّل الأمر من نزع البركة إلى نزع النعمة نفسها!

مثال ذلك ما حصل لقوم سبأ.

- نقف عند هذه القصة قليلًا ونرى ماذا حدث لقبيلة سبأ الذين باسمهم سُمِّيت سورة.

وهذه السورة جمعت قصتين: قصة سليمان–عليه السلام–، وهو نموذج الشكر، عنده نِعَم عظيمة لكنها ما غرَّته، إنَّما بقي ناسبًا النعمة لله، شاكرًا لله–عزَّ وجلَّ–على أنعمه، ومثله داود–عليه السلام–، وكيف كان من أعظم النعم أنه يسبِّح فَتُأوِّب الجبال معه، أي ترد عليه تسبيحًا.

وهذا كان مما يزيد الإيمان ويُبيِّن للعبد مقدار وأثر الشكر، **فالشاكر كثير التنزيه والتسبيح والذكر**، ثم يثبِّته الله بمثبِّتات ترفع وتزيد إيمانه، في حق داود كان هناك حق خاص أنه كان يسبِّح فترجع الجبال له، لكن لو ترى على قدر حالنا، عندما تكون شاكرًا وتسبِّح يرزقك الله مَن يعينك على ذلك، مثلما طلب موسى–عليه السلام–أن يشد الله أزره بأخيه هارون، قال: {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا}(1) معنى ذلك أن من النِّعم على العبد أثرًا للشكر أن يرزقه مَن يعينه، ومَن يذكر معه، ليس معنى ذلك أن نقوم بذكر جماعي، يذكُر معه أي أن نذكِّر بعضنا، أستحثُّه على التسبيح، فلو مَرَّ عليَّ أمْرٌ أُحَكيه وأقول: (سبحان الله! كيف أخرجني الله، وكيف وُفِّقت، والحمد لله كيف ربي يسَّر الأمر) فتكون مع مَن تصاحب ذاكرًا لله مسبِّحًا منزِّهًا.

وهي كلمتان: **نسبِّحك، ونذكرك**، فكلَّما خطر علينا خاطر الشيطان وجاءتنا خواطر التثبيط، يقول لي المعين: لا تظن بالله هذا الظن، تنبَّه، لا يأتي من الله إلَّا خير، فننزِّه الله سويًّا، ثم نبقى له ذاكرين دائمًا، فهذا من النعماء التي تحتاج إلى شكر، فإذا وُفِّقت لأخ من هذا النوع فأكثر الشكر، فالإخوان غالبًا ما يأتون على الهوى.

- ننتقل لقصة القوم الذين كفروا وهم قوم سبأ، السورة أتى فيها قصة داود وسليمان الشاكرين، وقصة سبأ الكافرين، ماذا كفروا؟ كفروا أنعم الله.

قال السعدي رحمه الله في تفسيره:

يقول–سبحانه وتعالى–: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ}(2) أي أن مساكنهم كانت آية من آيات الله، وسبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها "مأرب" ومن نعم الله ولطفه بالناس عمومًا، وبالعرب خصوصًا، أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين، ممن كان يجاور العرب، ويُشاهَد آثاره، ويتناقل الناس أخباره، ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة.

أولاً: سبأ معروفة عند العرب، أصبحت مَثَلًا عند العرب وكيف تفرَّقوا، فحَكاها الله لينقل لنا صورة حدثت في التاريخ لقوم؛ كان مُنعَمًا عليهم غاية النعم، ثم بسبب كفرهم مزَّقهم الله كل ممزَّق! ثم أنت اعتبر، أي ضع هذه الصورة التاريخية أمامك، واعلم أن الذي يفعل فعلهم سيفعل الله فيه نفس الفعل، وأنت تلتفت يَمْنة ويسرة، فترى بلدة كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا، ثم كفرت بأنعم الله، فماذا فعل الله بها؟ {فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ}(3) أصبح لباسًا، أذاقها لباس أمرين: **الجوع والخوف**.

وتأمَّل يمنة ويسرة سيتبيَّن لك الأمر جيدًا، وستعلم أن هذه سُنَّة الله، مَن يعامل الله هذه المعاملة فهذا فعل الله معه، فلا يَغُرَّك حلمه ولا بقاء النعمة عليك، ولا أرصدتك الموجودة في البنوك؛ لأننا دائمًا إذا أراد الشيطان أن ينزع ثقتنا بالله يضع لنا بديلًا، فدائمًا البدائل عندنا أموالنا، أولادنا، بيوتنا، يذكِّرنا بها لنسترخي ونطمئن، ونقول: أنا لا أحتاج لزيادة، على ذلك عبادة الشكر

(1) [سورة طه: 33–34]
(2) [سورة سبأ: 15]
(3) [سورة النحل: 112]

ليست ذات بال، نحن لا نقول لأنفسنا هذا الكلام بألسنتنا، نستحي أصلًا، لكن هذه خواطر تدور ونحن نتفرَّج عليها، ولا أقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وسبحان الله، هل أنا إلَّا عبد فقير وهو الغني وأنا في كل وقت إليه محتاج!

سكوتك عن هذه المحادثات القلبية نوع موافقة تسبِّب استقرارها؛ لأن كل بلية قلبية من الرياء والعجب والكبر؛ تبدأ خواطر مسكوتًا عنها، فتنتقل لتصبح ثوابت! تصبح مشاعر ثابتة، فالمطلوب منك عندما تمرُّ هذه الخواطر وتمرُّ عندك مشاعر الاستغناء عن الله، استعذ بالله وادفعها.

مثلًا أكون مريضة، فيأتي لي خاطر يقول لي أني لا أحتاج فأنا طبيبة وزملائي كلهم أطباء وعندي مستشفى! انظر للثقة، هذه الخاطرة عندما تمرُّ لابد أن تستعيذ بالله منها، إذا تركتها تستقر يتحوَّل العبد من شاكر لأنعم الله إلى كافر أظهَرَ استغناءه عن الله، فعرَّض نفسه لتربية الله، لتأديب الله، فانظر لشخص يفكِّر هكذا وكيف تُنزع منه النعمة نزعًا، كيف يضعه الله في موقف يجرِّده من قواه من أجل أن يتأدَّب! فنحن لا نعرِّض أنفسنا لمثل هذا، إنَّما أول ما تمرُّ علينا خواطر فاسدة من هذا النوع نسبِّحه وننزِّهه ونستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، لكن عداوة الشيطان ليست واضحة، إحساسنا بالعداوة وجريانه في دمنا وخواطره ليس واضحًا، لذلك عبادة الاستعاذة العظيمة لا نقوم بها كما ينبغي.

- **هناك عبادتان مهجورتان وأثر هجرهما ما تراه من تخبُّط الناس:**
  - الاستعانة.
  - والاستعاذة.

لا نتخيَّل أني عندما أقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ميزان حسناتي يزيد ويكف الله عني الشيطان، بل شعور أن الاستعاذة عبادة تقرِّب إلى الله، تبيِّن أنك ذليل منكسر، تريد حفظه-سبحانه وتعالى-، ومثله عبادة الاستعانة المغفول عنها.

فقال: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ} أي: محلهم الذي يسكنون فيه. {آيَةٌ}.

آية من كثرة النعم، آية يتكلَّم عنها الناس، بمعنى أن ما هُم فيه من النعم كان أمرًا مدهشًا، يتحدَّث الناس عمَّا هم فيه من نِعم وحضارة ونعيم في الدنيا، مثلما تأتي لشيء عظيم تقول: هذا آية من آيات الله، ومثلما يقول الناس: هذه آية في الجمال.

والآية هنا: ما أدرَّ الله عليهم من النِّعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم، أن يعبدوا الله ويشكروه.

وهذه الآية جنتان عن يمين وشمال.

- (جنتان) يمكن أن تُفهم بطرق:

1. القرية نفسها يحيط بها جنتان، وهم في داخلها.
2. وقيل: أن كل صاحب دار تحيط بداره جنتان عن يمينه وعن شماله.

سواء كان هذا أو هذا فقد كانوا في نعيم مقيم، وكان لهم وادٍ عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سدًّا مُحْكمًا، يكون مجمعًا للماء، السَّد المحكم كان أمرًا غير معروف، ثم ألهمهم الله إيَّاه، وحين تقرئين الكتب التاريخية التي تصف هذا السد سواء في الكتب

التاريخية أو في المستشرقين المعاصرين، كتبوا في صفة السد، فكان على صفة هندسية عظيمة، وكانوا يقولون إن أول مَن عَلِم وتعلَّم صيانة الأشياء هم، لم يبنوه ويتركوه! كان عندهم صيانة دورية كل ستة أشهر إلى سنة، وكانوا بنوه في مواضع معيَّنة بحيث يكون نزول الماء لهم بصورة بديعة، أتوا في أضيق مكان في الوادي وبنوا السد، فلما ارتفع الماء عن السد وضعوا أشياء معيَّنة لاستقبال الماء الزائد عن السد، ثم أتقنوا السد إتقانًا لا يمنع به الماء تمامًا ولا يذهب، وأخرجوا منه مخارج بحيث تدخل على الجنتين وتسقيها، باختصار: ألهمهم الله الإتقان الهندسي المادي لبناء السدود وللانتفاع من مياهها.

فهؤلاء كانوا أصحاب جنتين، وأصحاب حضارة، هذا يذكِّرنا بقارون الذي فُتحت عليه الكيمياء، لكن هؤلاء فُتحت عليهم الفيزياء، أي الزوايا الهندسية: طريقة المواد وكيف يستعملونها وفي أي زاوية، وهذا أمر لابد أن نتصوَّره: أن الله-عزَّ وجلَّ-حين يُنعم على قوم يُنعم عليهم ببركات من الأرض والسماء، فهؤلاء أنعم الله عليهم:

- ببركات من السماء ينزل عليهم المطر دائمًا.
- أنعم عليهم ببركات من الأرض بهذه المناطق الجغرافية التي سمحت لهم ببناء السدود.
- ومن ثمَّ ألهمهم الله من طرق الانتفاع.

هو الأول الذي ابتدأ الخلق كلهم بالنعم، وهو الأول الذي علَّمهم كيف ينتفعون من النعم، وحين تأتي إلى أي اختراع ستفهم أنه تحت اسم الأول، وأن الله هو الأول الذي علَّم هذا الأمر، وسخَّر لهذا هذه التجربة، وأفهم هذا الأمر، إذًا هو الأول الذي سبق كل شيء.

ويقال إن سبأ كانت تنتج أرضها مرتين على خلاف باقي الأراضي التي لا تنتج إلَّا مرة واحدة، ويقال إن من كثرة النعم التي كانوا يعيشونها أنهم كانوا لا يحتاجون إلى فلاحة ولا إلى حصد، لا يحتاجون إلى فلاحة لأن الأرض تنبت مباشرة، ولا إلى حصد، أي لا يحصدون الأشياء، فهي متدليَّة لدرجة أن المرأة تخرج على رأسها مكتل-الكيس الذي يضعون فيه الأشياء-، تمر بمكتلها فتهز الأشجار فتتساقط الثمرات داخل المكتل، وهذا من النعيم الذي كانوا يعيشونه، فكانوا آية فيما يعيشونه، كان يتحدَّث الناس عن نعيمهم.

وكم يتحدَّث الناس عن حضارة الشرق والغرب، يتحدَّثون عنها عندما أعطاهم الله.

الكلام يطول من كلام المفسرين في كيف كان حالهم، لكن يكفيك في هذا كله أن الله-عزَّ وجلَّ-قال عنهم آية، فتفهم أن هذا ليس بالأمر العادي، أي أن الجنة التي يملكونها ليست كأي جنتين، هذا فوق الأمر العادي من اليسر والرخاء والكثرة والسهولة.

ثم وصف الله ما المطلوب منهم بعد هذا كله {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ} كلوا وتمتَّعوا، واعتقدوا أن هذا من رزق ربكم، وهذا الذي اتَّفقنا عليه في أول قاعدة في الشكر: أن تُنسب النعمة إلى الله، فكُلْ ولست ناسبًا النعمة لنفسك، بل وأنت متأكِّد أنه من رزق ربك.

لذلك الله-عزَّ وجلَّ-يحب مَن إذا أكل حمد الله، فانظر كيف تتعرَّض لمحبَّة الله؛ بكونك فقط عندما تأكل تحمد الله، فهذا إشارة إلى أنك ناسبٌ النعمة إليه-سبحانه وتعالى-، فكلوا لكن مع اعتقادكم أن هذا من رزق ربكم، ثم {وَاشْكُرُوا لَهُ} ماذا أعطاكم؟ أمرين:

أولا الدنيا: بلدة طيبة، وحين يقول الله-عزَّ وجلَّ-: **(طيِّبة)** عن أرض فلا تسأل عن طِيبها، حتى أن الوَخَم أي القاذورات والحرارة في الجو والميكروبات-كما يعبرون-أرضهم طاهرة منها، إلى درجة أنه يقال إن الرجل يسافر ثم يأتيهم فيكون معه شيء من الذباب والبعوض، فلمَّا يقترب من أرضهم تموت، تطيِّبه أرضهم، وتقتل عنه الحشرات، مثلما نقول: مكان صحي، نقاهة، يسترجعون فيه قوتهم.

فلمَّا يصف الله-عزَّ وجلَّ-أرضًا بأنها أرض طيِّبة، لك أن تتصوَّر كل شيء، من صحة وهواء وماء، ونظافة ويُسر وسهولة، أعلى درجات الحضارة الممكنة بما يناسب العصر الذي كانوا فيه، وقد كانوا على وضع من الحضارة لم يُنقل لأنه لا يُدرك، في نقل أشيائهم وإيصال الماء إلى مزارعهم، شيء من الحضارة، تقدُّم، لكن كله فَنِي!

ثانيًا: ثم ليس فقط بلدة طيبة تستمتعون بها، لكن أعظم النعم **أن لكم رب غفور**، فماذا يحدث إذا جمعتم بين الشكر والاستغفار؟ زاد طيب دنياكم، وصلحت آخرتكم.

لو كنت في موقف مثل هذا-ونحن حقًا في موقف مثل هذا-ماذا سيكون منك من شكر واستغفار؟

لابد أن يَلْهج اللسان بالشكر والاستغفار.

لكن لماذا لم يشعروا بهذه النعمة؟

نفس السبب الذي جعلنا اليوم لا نشعر بالنعمة-نسأل الله أن يحفظ علينا النعم-، لكن لك أن تتصوَّر لو كَفَر أهل الأرض، يأتي أولادنا يقولون: هل تصدِّقون أن أهلنا عندما كانوا يريدون أن ينتقلوا من مكان إلى مكان ما كانوا يسيرون على أقدامهم أو الحيوانات التي تنقلهم، كانوا يركبون من الآلات أشياء توصلهم بسرعة، ومن صفات هذا البلد أن الله قارب بين المسافات، وذكر فيها كلامًا كثيرًا من أهل العلم لكن الله أعلم ما حقيقته.

الكفر يذهب بالنعم، ليس شاهدنا هنا، شاهدنا أن الإنسان وهو يستمتع بالنعمة اعتادها، فلمَّا اعتادها غفل عن الشكر والاستغفار، عندما تذهب ويذهب هو يأتي بعده مَن يقول: ألم يكن عنده عقل؟ كيف لا يشكر؟! كل هذه النعم ولا يقول الحمد لله؟! مثل مشاعرنا نحوهم الآن، {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ}، لو خرجوا فقط خارج بلادهم لرأوا نقص الماء والطعام، كانوا محصنين بهذه النعم العظيمة، ومع ذلك ما شكروا، أي شيء بلغوه؟ بلغوا في الدنيا الحد العظيم، ومع ذلك ما شعروا بالنعمة.

لماذا لم يشكروا؟ لاعتيادهم على النعمة، كل شيء موجود وتحت اليد ولا نظن للحظة أننا سنفقده، والله على كل شيء قدير! ألم يكن بنو إسرائيل بشر ثم مسخهم الله إلى قردة وخنازير؟ أليس الله على كل شيء قدير؟!

المقصد أن العبد ضعيف في نسبته النعمة إلى الله، عقله يتوقَّف ويظن أن هذه النعمة لا تُسلب، وأحسن مثال يمكن أن تعايشه: انظر إلى صحتك، من شباب إلى هرم، دائمًا لا يشعر بنا الشباب عندما نقول: يا ابني صحتك ستفقدها وتأتيك اللحظة التي تتثاقل فيها أن تقوم، وانظر فقط لنفسك عندما تكون مريضًا وصحيحًا، وانظر كيف تَبات صحيحًا وتصبح مريضًا، فما تستطيع أن تقضي أقل حوائجك، ارتفاع بسيط في درجة حرارتك يكدر الحياة! فمَن قال لك أنك مالك للنعمة؟ مَن قال لك؟!

كل النعم عارية، أي (سِلْفة)، وهبك الله إياها، إن شكرت ثبتت، وإن كفرت نزعت، أو نزعت بركتها، فشعورك بأن النعم عارية يجعلك تحافظ عليها، لكننا لا نشعر بذلك، مثل الجارة التي اقترضت من جارتها ثم نسيت الموضوع، وظنت أن هذه القطعة تملكها! وهكذا صحتنا وأولادنا وبيوتنا وكل ما نملكه؛ نظن أنه تحت سيطرتنا، إنما هذا المُلك تخويل، تفويض محدود الزمن، إذا أحسنت أُحسن إليك، وإذا أسأت نُزع أو نُزعت بركته.

بلغنا في الكلام حول قصة سبأ إلى نهاية هذه الآية، فهمنا أن هذا رزق من الله، أمرهم الله–عزَّ وجلَّ–أن يأكلوا ويتمتَّعوا، لكن مع بقاء أمرين:

1. النسبة والشكر من جهة.
2. والاستغفار من جهة أخرى.

لماذا الاستغفار يلحق الشكر؟

لأن العبد مهما بلغ في طاعته لربه وعبادته لابد أن يكون مقصِّرًا، فمن أجل سد هذا التقصير عليه أن يكثر من هذا الاستغفار، ونحن المفروض نقوم بهذا العمل مع الاعتقاد في كل مرَّة نصلي فيها، وبعدما ننتهي نستغفر ثلاثًا، لاعتقادنا أن صلاتنا لابد يكون فيها من النقص في شكره–سبحانه وتعالى–فنستغفر.

فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرَّها عليهم من وجوه كثيرة:

منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أقواتهم منهما.

ومنها: أن الله جعل بلدهم، بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلَّة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أن الله تعالى وعدهم–إن شكروه–أن يغفر لهم وَيرحمهم، ولهذا قال: {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ}

أي أن هذا فهم آخر للآية، أن الاستغفار ليس أمرًا إنما الاستغفار جزاء، جزاء على الشكر، كأنه يقول لهم: كلوا وانسبوا النعمة إلى الله واشكروا، وبسبب شكركم سيثبِّت طيب بلدكم، وسيعاملكم الله باسمه الغفور.

{كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ} أي معتقدين أن هذا من رزق الله، واسم الرب هنا له دلالته، افهموا أن اختيار اسم الرب له علاقة بتربيته وعطائه، فهو المُنعم–سبحانه وتعالى–الذي يستحدث على العباد النعم دائمًا، ثم بعدما تنسبون النعمة إلى الله {وَاشْكُرُوا لَهُ} فإذا فعلتم هذا توفر لكم أمران:

– {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ} **أي ثبات طيب البلد عليكم.**

- {وَرَبٌّ غَفُورٌ} **أي رب لشكركم سيعاملكم بمغفرته.**

ولاحظ أمرًا عجيبًا في الآية، أن الله لم يأمرنا أولًا بالشكر، بل أمرنا أولًا بالتمتع، فأولًا أتى: (كلوا)، تمتَّعوا، من أجل أنكم لو أكلتم وأصابتكم النعمة لابد أن تكونوا فزعين إلى ربكم، ناسبين النعمة له.

وعلى هذا من الخطأ الشائع بين الناس أنهم يأكلون ويستمتعون ويتحدثون عن النعمة منسوبة إلى أنفسهم؛ فتلهيهم النعمة عن ذكر ربهم وشكره، وانظر وقتما نأكل شيئًا نحبُّه، كم نتغزَّل في هذا المأكول؟! في طبخه، أو في وزنه، أو في المحل الذي يبيعه، أو في إتقانه، ثم ينفض المجلس في الغالب على لا شكر! أو قليل من الشكر! لا ذكر أو قليل من الذكر! نادرًا ما ننتبه أن المفروض عندما نأكل فنتمتَّع مباشرةً ننسب النعمة إلى الله: {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ} لو فعلتم ذلك طيَّب لكم المقام طيبًا زائدًا، وأيضًا غفر لكم ذنوبكم، هذا معنى وهذا معنى.

1. انسبوا النعمة إلى الله واستغفروه واشكروه.
2. أو معنى آخر: كلوا النعمة، وانسبوا النعمة إلى الله واشكروه، سيكون أثر ذلك أن يطيِّب عليكم حياتكم، ويغفر لكم في أخراكم.

ومن النعم التي أنعمها الله عليهم: أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة، –الظاهر أنها: قرى صنعاء قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها الشام– هيَّأ لهم من الأسباب ما به يتيسَّر وصولهم إليها، بغاية السهولة، من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقَّة بحمل الزاد والمزاد[(1)].

انظر كم نعمة عليهم؟

1. جنتان.
2. جعل الله بلدهم طيبًا.
3. وعدهم إن شكروا له أن يغفر لهم.
4. أن الله –سبحانه وتعالى– سهَّل لهم طرق التجارة.

حتى عندما قالوا: ما عندنا لا يكفينا، يسَّر لهم طرق التجارة، وأمَّن طرقهم وأبعدهم عن الخوف من أجل أن يصلوا إلى مرادهم، وهذا ذُكِر في الآية بعد ذكر إعراضهم: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ}[(2)] سيروا فيها ليالي وأيامًا، ما وصفكم وأنتم تسيرون ليالي وأيامًا؟ آمنين.

وأنتم لو قرأتم في التاريخ ستعرفون ما معنى كلمة آمنين، مرَّ على المسلمين أزمان يقول ابن كثير في البداية والنهاية: (لم يحج هذه السنة من هذه الجهة أحد! لأن قطَّاع الطرق سيطروا على الطريق، وهذه السنة لم يحج إلى بيت الله إلَّا نفر يسير من أهل مكة وما حولها لأن قطاع الطرق أحاطوا بمكة).

(1) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي.
(2) [سورة سبأ: 18]

اقرأ في البداية والنهاية وغيرها، ستجد معنى كلمة آمنين، والقوم اليوم قدرتهم على السفر بل قدرتهم على التنقل في داخل المدينة أمر لا يَشكُرون عليه، فقليل من الزحام ماذا يفعل في أعصابنا؟ تجدون ما تجدون من السِّباب! مع أننا في ظلال نعمة عظيمة، فلا دبابات في الشوارع، ولا أصوات لطلق النار، ولا خوف من خروج، أيًّا كانت بيوتنا سواء داخل الحواري أو في شوارع مفتوحة، الناس يرتادون بيوتهم ليلًا ونهارًا، فهذه (آمنين) نعمة عظيمة يذكِّرنا الله بها، والتذكير هنا نفس تذكير قريش، ذكَّرهم الله بالنعمة، ذكَّرهم الله بنعمتين غاية في العظمة {أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}[1] هؤلاء نفس النعمتين، **(كلوا)** أي أطعمهم، {سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ} أي: آمنهم من خوف، فتبقى هذه هي سقف نعم الدنيا.

نحن ذكرنا سابقًا أن الإنسان حتى يعيش مستقر النفسية، غير متطلِّع إلى شيء لا يبلغه، لابد أن يجعل سقف أمانيه في الدنيا محدودًا بما ينفعه، ورد ذلك في الحديث، وهنا أيضًا موطنان ورد فيهما الأمر:

1. (من أصبح آمنا في سربه.
2. معافى في بدنه.
3. عنده قوت يومه.

فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها)[2] أي مَلَكَ الدنيا بحذافيرها، يقول ابن عمر: "ولو كان له خادم لأصبح ملكًا متوَّجًا"، أي أنه بلغ الغاية في النعم. فهل هذه النعم محسوس بها؟ أم من كثرة ما نحن غرقى فيها لم نشعر بها؟ وهاهم هؤلاء لا يقدرّون نعمة الله!

ولهذا قال: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ} أي: سيرًا مقدّرًا يعرفونه، ويحكمون عليه، بحيث لا يتيهون عنه {لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ} أي: مطمئنين في السير، في تلك الليالي والأيام، غير خائفين. وهذا من تمام نعمة الله عليهم، أن أمَّنهم من الخوف.

يُقال في حقِّهم أن الله–عزَّ وجلَّ–يسَّر لهم عِلْم الاتجاهات، وقرَّب لهم ما نسمِّيه الآن بالخرائط المكانية، فصار انتقالهم من بلدهم إلى البلدان التي يريدونها في وقت لا يتيهون، يسيرون في أقرب الطرق فيختصر عليهم الزمن وفي نفس الوقت لا يضيعون، ثم يسَّر الله لهم أن يكون من قريتهم إلى القرى التي فيها مصالحهم قرى كثيرة في الوسط بحيث أنهم لا يستوحشون، أي دلَّهم على مصالحهم، وجعل لهم من ألطافه نعيمًا لم يكن في أيديهم، أي لم يكن في أيديهم أن يجعلوا القرى في الطريق بحيث لا يستوحشون، فخففَّ عليهم الزاد، حتى وَهُم مسافرون لا يحملون أشياء كثيرة معهم، مطمئنين أن هناك قرى يمكن أن يستمتعوا بمرادهم فيها، فتعلَّموا الجهات وعرفوا الطرق وما تاهوا، فكما هو معلوم أنك بدون دليل تضيع، فجعل الله لهم في الأرض منارات يهتدون بها، فَكُل هذه نِعم عاشوها واستمتعوا بها وحصَّلوا بها نِعم الدنيا، وهذا كله معه رب غفور إذا عاملوه بالشكر.

(1) [سورة قريش: 4]
(2) رواه الترمذي في سننه، وحسَّنه الألباني.

ما النتيجة؟ {فَأَعْرَضُوا} وكلمة (أعرضوا) تتسع وتضيق، أي تَصْلُح لكل أحد في نفس الموقف، أعرضوا عن المُنعم وعن عبادته، نتيجة ماذا؟ لأنهم بطروا النعمة وملُّوها، جاءهم الملل؛ حتى إنهم طلبوا وتمنَّوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسِّرًا! {وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ}[1] بكفرهم بالله وبنعمته.

ما معنى الإعراض؟

أي: شخص يعطي الطريق الصحيح ظهره، يُعرض عن الطريق الصحيح، والمُعرض لا يأتي إعراضه إلَّا بعد نداء، أي أنَّ الله يناديه وهو يُعرض عن ندائه! فبماذا ناداهم الله؟ بالنِّعم.

بماذا أعرضوا عن ندائه؟

1. ملُّوا النعمة.
2. واعتادوها، لدرجة أنه انعدم شعورهم بها.
3. وتصوَّروا تمكنهم التام منها، تصوَّروا أنه لا يمكن أن تتغيَّر الأحوال.

هذا لو استقر في القلب لابد أن يولِّد شعورًا بالاستغناء عن الله، وعن دعائه وعن سؤاله، وعن الانكسار بين يديه والذُّل له.

فشخص متأكِّد أن النعمة لن تتغيَّر متى سيسأل الله: يا رب بارك لنا فيها وثبتها علينا!

ثم شخص مَلَّ النعمة متى سيطلب ثباتها أو بقاءها وهو أصلًا كاره لها!

ثم شخص اعتادها، مات في قلبه الشعور أنه مُنعَم عليه أصلًا، ومادام ليس شاعرًا بالنعمة فهل سيقول: يا رب لك الحمد والشكر ثبِّت علينا نعمتك؟!

نسأل مَن جاور الحرمين، الذين بينهم وبين الحرم أقل من 56 كيلومتر، أو الذين حول الحرم أيضًا، إلى أي درجة نحن نشعر بنعمة القرب من الحرم؟ إلى أي درجة نتذكَّر النعمة فنشكر الله ونسأله أن يثبِّتها علينا؟ لا تقولوا: نحن نعتمر في كل شهر مرة. أنا لا أتكلَّم عن الفعل، أتكلَّم عن المشاعر. هل تشعر أن الله اختصَّك فقرَّبك؟ أم تشعر أن الأمر طبيعي أن تكون هنا ولا زيادة في ذلك؟!

وكم يمر على الخواطر من شبابنا وشاباتنا الهجرة العكسية! كم يأتي في أذهانهم أن الأفضل لو خرجوا! فتصوَّر أن شخصًا قريبًا من مكان يحبه الله، ولو دخلت هذا المكان الذي يحبه الله يُبارك لك في عمرك وصحتك وأعمالك، فتصلِّي الظهر كأنك صليت مائة ألف مرة، وتطوف حول الكعبة فتخرج وقد غُسلت من ذنوبك، تمسح على الحجر الأسود أو الركن اليماني فتتساقط ذنوبك، لو نويت عمرة وسعيت 7 مرات يقال لك: هذا موطن ادع فيه بما شئت، هذا موطن لاستجابة الدعاء، كل خطوة ترفعها ترفعك درجة وكل قدم تضعها تحط عنك خطيئة.

---

(1) [سورة سبأ: 19]

اللقاء الرابع

لكن الهَمّ ليس للآخرة لذلك لا قيمة لهذه النعمة عند كثير من الناس، عند مَن جاور الحرم، وأحيانا عند مَن طلَّ عليه! لماذا؟ لأنه اعتاد. وانظر للناس المحرومين البعيدين كم يحسدون هؤلاء القريبين! ويا لحسرة قلبي، القريبون بدون مشاعر تجاه هذه النعمة! كثير من الأحيان أصلًا ما تخطر هذه النعمة على البال.

المقصود أنه قارب لك المسافات، وقرَّبك من رضاه، وقرَّبك إلى أرض يحبها، ويسَّر لك الوصول، وجعل الطريق آمنًا، وكل شخص منَّا عنده من النعم التي تقربه من هذا المكان الذي يحبه الله، لكننا غافلون تمام الغفلة عنه، واحسب النعم بعد ذلك على هذا.

والدان موجودان، أو والد منهما، باب للجنة مفتوح، دعاء مستجاب، رضا يصلح الدنيا، ثم لا يمرُّ على خاطرنا أن نشكر الله على بقائهما أو بقاء أحدهما! ولا تسأل عمَّا بعد ذلك من الأعمال، إذا جاء الإحساس بوجود النعمة يأتي الذي بعده الذي هو أنواع الشكر.

الزوج باب من أبواب الجنة، لابد من الشعور بنعماء الله أن يسَّر هذا الباب، ومهما عَسُر باب الزوج لازال قريبًا، فلم يقل لك: اخرج بسيف للجهاد، ولم يقل لك: اعمل الليل والنهار، قيل لك: ((إِذَا صَلَّتْ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ))[1] أليس هذا قريبًا؟ قريب، ويسير على مَن يسَّره الله، لكن كم من امرأة تقول: والله أنا كنت في بيت أهلي أحسن! وأخرى تقول لبناتها: أحسن لكم ألَّا تدخلوا هذه التجربة المُرَّة!

الأبناء نعمة عظيمة من الله، لو أحسنت تربيتهم أحسن الله إليك، ببقائهم بعدك سبب لجريان الأجور وإضاءة ظُلْمة قبرك، وهم قريبون وفي متناول اليد، لو عَبَدْت الله بعبادة الاستعانة أعانك عليهم مهما صعبوا، في النهاية كم من متسخِّط على هذه النعمة!

هذه النعم التي غالبنا يشترك فيها، وهذا مختلف عن النعم الخاصة: أنه أعطاك عقلًا يوزن الأمور، رزقك حكمة تتخذ قرارًا سليمًا، أعطاك ذكاء، سرعة حفظ، كل هذا بين ثلاث مشاعر:

1. إمَّا عدم الشعور بالنعمة.
2. أو الملل منها.
3. أو شعور أنها لا تذهب، أني متملِّكها، صاحبها.

ولهذا عندما تأتينا لحظات وننسى بعد قوة ذاكرة نفجع على أنفسنا ونقول: أي شيء آكله لتبقى ذاكرتي كما هي؟ أي شيء أفعله من تمارين عقلية لأبقى كما أنا؟ إنَّما هذه نعمة كُفِرت ولم تُشكر فكان هذا الجزاء!

المقصود من كل هذا النقاش أن نرى أن قوم سبأ تكرروا نماذج، أين النماذج التي تكررت؟ في نفوسنا، ما الفعل؟ عُد نعمة الله علينا: نأكل ونشرب، آمنين، وفوق هذا أصحاب صحة الحمد لله جيدة، فأتى الثلاثي الذي تُبنى عليه متعة الحياة، وأعظم من هذا وهذا أنك لو شكرت طيَّب الله لك الحال {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ}، لماذا يُعرِض هؤلاء بعد كل هذه النعم؟

1. **إمَّا ملل.**

(1) مسند الإمام أحمد، تعليق شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لضعف ابن لهيعة.

2. **أو عدم شعور بالنعمة.**
3. **أو إحساس بتمكُّنهم من النعمة.**

ثم يأتي على هذا كله تنغيصات لا تخلو الحياة منها، كل هذه النعم ونحن ناسون لها، ثم يأتون إلى سنَّة الله في الحياة وهي التنغيص فيجعلونه العظيم الذي يكدِّر الحياة، فيصبح إعراضهم مُركَّبا من عنصرين:

الأول: يدور حول النعمة: نسيان، ملل، إحساس بالتمكُّن.

الثاني: تعظيم منغِّصات الحياة.

لو قلت: اذكر لي عيوب أولادك؟ زوجك؟ قد نصل لعشرة، أو قلت: لنحصي حسنات الزوج، تجد أنَّ هذه تحتاج تفكيرًا حتى نكون مخلصين! أترون هذه القاعدة؟ تُجرُّ على كل شيء، السيئات ظاهرة واضحة، والحسنات تكاد تكون مخفيَّة، ما هذه السياسة النفسية؟ هذه سياسة تعظيم النقائص، كل شيء ناقص أعظِّمه.

قل لابنتك: عندنا حفلة عشاء، نريد أن نذهب إلى أناس، أول كلمة تقولها: ليس عندي ما ألبسه! مع أنك لو فتحت خزانة الملابس تجدها تكاد تسقط! في تصوُّرها أن الناقص عليها كل شيء، واحسب على ذلك كل شيء.

كم مرة سُئِلنا: ماذا ينقصكم؟ وكم مرة قلنا: الحمد لله لا ينقصنا شيء، نحن بخير حال، وأحيانا عندما يقال لنا: ماذا ينقصكم؟ ولا يكون عندنا ما ينقصنا نفتِّش لنُخرج ما ينقصنا! أترون هذه السياسة النفسية كيف تحتاج لتهذيب؟! دائما قطِّع عروق الإحساس بالنقص، وهذا ليس له علاقة بالزهد أبدًا، فالزهد مرحلة أعلى بكثير من ذلك، أنا أتكلَّم عن سياسة عدم إذهاب قوة النفس، لا تُذهب قوتك بالتفكير بالمفقود، استمتع بالموجود.

وهذه السياسة تريح نفسك من التعلُّق والقلق والوهم وأحلام اليقظة–ظاهرة عند الشباب–، نائمون في أحلام اليقظة وتاركون الواقع تمامًا منفصلون عنه، لا في أمر الدين ولا الدنيا، ينام على فراشه فقط يحلم ويحلم! هذا الواقع لو رضيت به ينمو وينمو.

لو نظرت لمسألة مثل التجارة، التاجر يبدأ بالشيء البسيط جدًا الذي لو حسبته بالعقل تقول: هذا لا يأتي بشيء، لكن الله عندما ينزل البركات على الأشياء يفتح الفرص للعباد، ونحن كلنا مثل الطير لو توكلنا حق التوكل، نغدو من أجل أن نحصِّل خيرًا فتُفتح لنا أبواب لا تخطر على خواطرنا، أكون قد ذهبت لأحصِّل ريالًا فيفتح الله لي غدًا بابًا لأحصِّل مائة ريال، والأمر ما كان يمر على الخاطر.

فالمقصد أن هذه المعادلة أهلكت طاقات النفس، منعت الزيادة، والزيادة محبوسة بالشكر، بركة السماء والأرض محبوسة بالإيمان والتقوى فالله–عزَّ وجلَّ–يقول: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا} كيف سيعاملهم؟ {لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ} من أين؟ {مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[1] أي أن بينك وبين البركة باب، حُبست البركة وراء هذا الباب، ما هو الباب؟ أن تؤمن وتتقي، وأعظم الإيمان أن تؤمن أن النعم كلها من الله فتكون لاهجًا بالشكر.

(1) [سورة الأعراف: 96]

اللقاء الرابع

ما الذي يحبس الزيادة؟ الشكر، فالشكر إن أتى فُتح باب الزيادة، أي أن الزيادة محبوسة مرهونة بالشكر، ونحن عندنا الزيادة مرهونة ومحبوسة بالجِدِّ والعمل!! هل هذا يعني أن العمل والجد لا علاقة له؟ أنت إذا استعملت الشكر تُرزق الحول والقوة على الجد والعمل، وفتْح الأبواب والتوفيق في اتخاذ القرار، فالشكر يأتي وراءه التوفيق لكل شيء {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}[1] كثير ممن يملك النعمة عندما يدخل في هذه المعادلة التي من عنصرين:

- **عنصر يُفْقِده الشكر.**
- **وآخر يعظِّم في قلبه المفقود.**

لمّا يمرُّ بأقل مُنغِّصات يصل إلى حال اليأس من روح الله، وتجده يسقط في أقل ضيق، ولو ذكَّرته بالنعم لا يذكر شيئًا، وتجد ألسنة تكفر بنعمة الله فتقول لك: أنا مستعد أن يأخذ ربنا كل النعم ويعطيني هذا فقط! كم قيل هذا الكلام؟ وفي هذا سَبٌّ للرب! وسبٌّ لحكمته–سبحانه وتعالى–! هل تظن أن يمنع عنك ما تحتاجه ويعطيك ما لا تحتاجه؟! هذا من سوء الأدب مع الله أن يقول أحد: كل ما أعطاني ربي لا أحتاجه أصلًا والذي لم يعطني هو الذي أحتاجه، هذا من سوء الأدب مع الله. ألا تعلم أن الله هو العليم الحكيم؟ يوسف–عليه السلام–بعد كل الذي مَرَّ به يقول: {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ عندما يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[2] أي: عندما قلَّبني في هذه الأحوال وأعطاني هذه العطايا، وهو يراها عطايا، يراها أنها من آثار لطفه وعلمه وحكمته، فكيف للعبد الضعيف الذي لا يعرف لنفسه مخرجًا من أزمة يقول على ربه اللطيف العليم الحكيم إنه أعطاه ما لا ينبغي عطاؤه ومَنَعَه ما يحتاجه؟! هذا سوء أدب مع الله، واعتداء عليه–سبحانه وتعالى–، هذا بالضبط مَسبَّة الرب العظيم، فلو كنت معظِّمًا لأحسنت الظن به واعتقدت يقينًا أن ما بين يديك هو الذي تحتاجه، وما حُبس عنك ومُنع هو بالضبط مالا تحتاجه، ثم استعمل التكيُّف.

التكيُّف النفسي: قدرة عند الخلق لكن الشيطان يحجزنا عنها، كل النفوس بل حتى الأبدان تتكيَّف مع ما يعطيها الله، النفوس والأبدان خَلَق الله فيها القدرة على التكيُّف مع ما يعطيها الله، والذي يصاب بنوع من الفشل الكلوي–أسأل الله أن يحفظ الجميع–ثم تنتشر السموم في بدنه، ولم يتعالج بعْد، يبدأ الجسم يتكيَّف مع السموم، يتعايش معها، لدرجة أنه لو بقي 3 أو 4 سنوات بهذه الحالة وفي بدنه السموم وما غسل، أول مرة يغسل فيها يحصل له اختلال في بدنه، أي عندما يأخذون منه السموم يحصل له اختلال في البدن، لماذا؟ من قوة تكيُّف البدن مع السموم! **فسبحان الله كيف الله–عزَّ وجلَّ–حتى عندما يبتلي الإنسان يجعل عنده قدرة على التكيُّف مع الابتلاءات.**

هذا المثل البدني عظِّمه أنت في المسائل المعنوية، الله–عزَّ وجلَّ–ينزل الضيق وينزل معه الصبر، وينزل معه الفرج، ثلاثي: ضيق، صبر، فرج، تضيق الدنيا، تُرزق صبرًا، ثم هذا الصبر يرفعك إلى الفرج، الصبر هو التعبير عن التكيُّف، كلنا بدون استثناء عندنا

(1) [سورة إبراهيم: 7]

(2) [سورة يوسف: 100]

قدرة على التكيُّف مع الأحداث والأوضاع والأحوال، إذا جعلونا نعيش في بيت صغير نتكيَّف، وإذا جعلونا نعيش في بيت كبير نتكيَّف.

لمَّا أعطاك الله كل شيء يعينك على أن تكون من الشاكرين، لماذا تُعرض؟

معادلة الإعراض سببها أمران:

- سبب يتَّصل بالنعمة الموجودة.
- وآخر يتَّصل بالنعمة المفقودة.

أما السبب الذي يتَّصل بالنعمة الموجودة فأحد ثلاثة مشاعر:

- ملل.
- اعتياد للنعمة.
- شعور أنها تحت يدي.

أمَّا مع الشيء المفقود فأُعظِّم كل مفقود، هذا يساوي شخصًا معرضًا.

الجزاء:

{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ} هذه عقوبتهم، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطغتهم.

النعمة التي كانت عليهم وهي سبب طيب أرضهم وخروج زرعهم هي الماء، هذا الماء نفسه كان سببًا لغرقهم، فأبادها عليهم فأرسل عليها سيل العرم.

وسيل العرم: أي السيل المتوعِّر الذي خرَّب سدهم مع حرصهم على صيانته، وأتلف جناتهم وخرب بساتينهم، جاء الماء فأزالهم!

وهذا الكلام سهل جدًا تصوُّره، سواء أهل جدة يتصوَّرونه أو كل مَن رأى أحداث اليابان سيتصوَّره، كيف أن ماءً لطيفًا وليس نارا لكنه يُحْمَل حملة واحدة! فيجعل الأرض كأن حربًا كانت فيها-هذا أقل تصوير يُصوَّر به الدمار الذي يحصل بعد الماء-وهذا الماء اللطيف فكيف لو كان نارًا ماذا كان سيكون؟!

مِن هنا فَهِمْنا أن النعمة نفسها التي تعامَلْت معها ببطر هي نفسها التي ستكون سببًا للعقوبة! كم من أموال تركها الورثة على أنها نعمة للوارثين ثم كانت عليهم عقوبة؟ تقطعت الأرحام، قامت القضايا في المحاكم، حصل وحصل بسبب هذا المال الذي هو في أصله نعمة لكنه تحوَّل إلى عقوبة.

ثم تبدلوا بعد الجنتين التي عاملوها بالبطر بجنتين، ووصْف الله-عزَّ وجلَّ-لهذه الأشجار التي لا تنفع بجنتين من باب العقوبة! أي أن الله-عزَّ وجلَّ-وصف هذه العقوبة التي نزلت عليهم بأنها جنتان؛ لأنهم يستحقون ما رأوا تلك الجنتين الخصبة جنتين، فخذوا

هذه الأشجار التي لا تنفع وطعمها مُر، خذوها واعتبروها جنتين لكم؛ لأن مثلكم لا تصلح له النعم! ما رأيتم الجنتين جنتين كما ينبغي، فانظروا لهذه على أنها جنتان.

فالعقوبة هنا حتى في التعبير، كان عندهم جنتان يستمتعون بها، فلمَّا ما شعروا بنعمتها أبدلهم الله بصورة تشبه تلك الصورة لكنها لا تنفع، فتبدَّلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة والأشجار المثمرة وصار بدلها أشجار لا نفع فيها، لماذا لم يتركها أرضًا بورًا؟ زيادة حسرة، لتعرف قدرة الله، فذلك الخضار والشجر كله سيذهب وستنبت هنا أشجار لكنها ليست تلك الأشجار!

{وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ} أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعًا، {خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ}[1] .

وقيل إن خمط معناها مُر، كانوا يتمتَّعون بالطعام اللذيذ، ذهب الطعام اللذيذ، وأتت أشجار فيها طعام لكن طعمه مُر، فلا يُحتمل التلذذ بها لكن يقوم بها البدن، فإما أن يأكلوه أو يموتوا، فانظر كيف يضطرهم إلى النقمة، يأكلون من الأشجار لكنها ليست كتلك الأشجار، وسيأكلون ويجدون طعما مرا مضطرين لأكله، ثم بقي عندهم شيء من سدر قليل، والسدر هي الشجرة المعروفة، لها ظلال لكن إنتاجها قليل، وهي أصلًا في أرضهم قليل، لكنها زاهرة، مظلة، ثم لا إنتاج! وهذا من جنس عملهم، أشجار كالأشجار، ثمار كالثمار، لكن هذه تنفع، وتلك لا تنفع.

فلما تنزل العقوبة على البطر لن تستطيع تفاديها، اضطروا أن يأكلوا من مُر الشجر، وهكذا كل بطران سيضطر أن ينفعل مع العقوبة رغما عنه! أي ستُغلق عليه كل الأبواب، كان في بيت واسع وبطران عليه طيلة النهار، يقول: والله أموت ولا أبيع بيتي، فتأتيه أحوال تضيق عليه الحياة إلى أن يضطر إلى بيعه فينتقل من السعة إلى الضيق، وهو لو كان باختياره ما فعل لكن الله–عزَّ وجلَّ–يقدِّر عليه من الأفعال التي تضطره لدفع ثمن البطر الذي كان يعيشه! واسأل أهل الواقع والأسهم والتجارات ماذا يحدث عندما يعاملون الله–عزَّ وجلَّ–بما لا يليق، يعاملهم بحلمه سنين ثم يدفعون ثمن البطر الذي فعلوه.

↵ كيف عاملهم الله–عزَّ وجلَّ–؟

هذا ليس ظلمًا منه لهم، وليس تعديًا، والله–عزَّ وجلَّ–منزَّه عن الظلم–سبحانه وتعالى–، لكن هذا جزاؤهم بما فعلوا، فكما بدَّلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح بُدلت تلك النعمة بما ذُكر.

ثم في نهاية الآية يقول سبحانه وتعالى: {وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ}[2] أي: مَن كفر بنعمة الله وبطر النعمة هو الذي يُجازى لأنه–سبحانه وتعالى–لا يظلم أحدًا، فالمسألة الآن تحتاج منَّا إلى شديد وكثير مراجعة، كلَّما أُنعم عليك بنعمة اعلم أن الذي يثبِّتها ويزيدها هو شكره–سبحانه وتعالى–، وإن تركت الشكر عاملك الله بالحلم، فإن زاد بطرك لابد أن تقع عليك العقوبة؛ لأن الله–سبحانه وتعالى–يعامل العباد بعدله، ثم كل العقوبات في الدنيا إنما هي ذوق! المصيبة الكبرى عندما تجتمع هذا العقوبات على العبد يوم القيامة.

---

(1) [سورة سبأ: 16]
(2) [سورة سبأ: 17]

اللقاء الرابع

انتهت سلسلة لقاءات الشكر ولله الحمد.

الفهرس

اللقاء الأول 1

اللقاء الثاني 15

اللقاء الثالث 35

اللقاء الرابع 59